حواديتُ المآذنِ

حواديت المآذن

تاريخ

إيهاب الحضري

الترقيم الدولي: ٧-٩٥-٦٥٣٤-٩٧٧-٩٧٨

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٦٦٨٠ /٢٠١٩

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٢٠

الفؤاد للنشر و التوزيع

الفؤاد للنشر التوزيع

برج سانت فاتيما، أمام جنينة مول، مدينة نصر

Alfouad_publishing@hotmail.com

Facebook.com/fouadpublishing

غلاف: د. عبد الله رجب

مراجعة لغوية: عبد الواحد الحسيني

تنسيق داخلي: د. بولا وجيه

حواديتُ المآذنِ

” التاريخُ السريُّ للحجارة“

إيهابُ الحضريُّ

الفؤاد للنشر والتوزيع

فهرس الكتاب

بدونِ مقدماتٍ!

الحواديتُ لا تحتاجُ لمقدماتٍ، فدعونا نلتقي في الخاتمة!

" ابنُ طولونَ"

مسجدُ الأحلامِ الثلاثة



مسجد بن طولون

قد لا يعرف ملايين المصريين موقعه[1]، لكنهم يتداولون صورته يوميًّا دون أن ينتبهوا، فهي تتصدر ورقة خمسة الجنيهات، ورغم ذلك يصبح القريب من العين بعيدا عن القلب، بحكم الاعتياد!

على قمة جبل" يشكر" بنى أحمد بن طولون مسجده الفريد، بعد أن وضع شرطا بالغ الصعوبة؛ وهو أن يصمد المبنى في مواجهة تقلبات الزمن. كان يريد بناء جامع:" إذا احترقت مصر بقي.. وإن غرقت نجا". ربما لهذا السبب اختار الجبل الذي كان الناس في ذلك العصر يعتقدون أن سفينة نوح قد استقرت عليه بعد انتهاء الطوفان، فارتفاعه يحمي المسجد من خطر الفيضان، كما أن الطوب الأحمر الذي اُسْتُخْدِمَ في بنائه يزداد صلابة إذا شبَّ حريق في البناء. وبالفعل بقي المسجد صامدًا بينما اختفت كل منشآت" القطائع"؛ عاصمة الدولة الطولونية التي توسَّطها لسنوات طويلة، ليصبح أُقدم المساجد القائمة على وضعها الأصلي منذ تشييدها، حيث يزيد عمره على عمر القاهرة بنحو قرن كامل؛ فقد تمَّ تشييدُه في سبعينيات القرن التاسع الميلادي.

---

[1] متفرع من شارع الصليبة

السلالم الخارجية لا تنقل الزائر إلى أعلى فقط، بل تمنحه شعورًا بالسمو ينساب بداخله تدريجيًا، وبعد خطوات قليلة من عبور بابه الضخم، يشعر أنه انتقل بين عالمين. خاصة مع مساحة المسجد التي تصل لستة أفدنة ونصف. على الصحن المتسع تُطِلُّ مئذنته الملوية الفريدة من أعلى، لتمنح المكان خصوصية لا تتكرر في بقيةِ مساجدِ مصرَ، فقد تمَّ تشييدُها على غِرار مئذنة سامراء؛ تلك المدينة العراقية التي نشأ فيها ابن طولون، فظلتْ حاضرة في وجدانه، وقرر بناء عاصمة حكمه على طرازها.

الحكايات المرتبطة بالمسجد حافلة بالدلالات، فإحدى القصص تُرَجِّحُ أن المهندس الذي بناه مسيحي؛ هو سعيد بن كاتب الفرغاني، مما يدل على مرحلة ذهبية كان النسيج فيها واحدًا؛ رُفِعَ شعارُ: "الدين لله والوطن للجميع"، قبل قرون طويلة من إطلاقه في العصر الحديث. الغريب أنه عند التفكير في بناء المسجد كان الفرغاني في السجن، بدلًا من مكافأته على تشييد منشأة أخرى. فقد ذهب ابن طولون ليعاين المنشأة، لكن قدم حصانه غاصت بموضع به جير ما يزال رطبًا، وتعثّر الفرس براكبه، واعتقد الأمير أن الفرغاني تعمَّد ذلك، فأمر بجلده خمسمائة جلدة وسجنه. مرت فترة علم بعدها السجين برغبة الحاكم في

بناء المسجد، وكتب له مبديًا استعداده لتشييده بنظام فريد لا يعتمد على أعمدة، سوى عمودي القبلة، ثم رسم له تخطيطًا للجامع، وافق عليه ابن طولون وخصص لتشييده مائة ألف دينار قابلة للزيادة، وشرع المهندس في بنائه على جبل يشكر. وبعد انتهاء العمل، زاره ابن طولون، ففر المهندس إلى أعلى المئذنة خوفًا من مصير مشابه لما سبق أن ناله! لكن النهاية كانت مختلفة، فقد حصل على مكافأة سخية قدرها عشرة آلاف دينار. بعد نشر هذا المقال فى جريدة" الأخبار"، تلقيتُ مكالمة هاتفية- لم تكن تربطني بمحدثي سابق معرفة، لكني شعرت بألفة لا أستشعرها بسرعة في العادة- بصوت هادىء أخبرني أن لديه تصحيحًا لمعلومة خاطئة. تَطَرَّقَ المهندس سمير متري إلى كتاب" السنكسار"، الذي يحوي سِيَرَ القديسين والشهداء من الكنيسة القبطية. ذكر الكتاب أن ابن طولون عرض على مهندسه دخول الإسلام، وأعدمه عندما رفض. وأرسل المهندس متري لي الكتاب لِيُثْبِتَ صدق كلامه الذي لم أشكك فيه، لكنني ذكرت له أن التاريخ لا يعترف بالحقائق المُطلقة، فهناك من يرى أن مصمم المسجد كان عراقيًا مسلمًا، دخل مصر مع ابن طولون؛ ولهذا جاء المبنى مشابهًا لآخر في سامراء. في المقابل هناك من يؤكد أنه كان قبطيًّا، ورغم حدة الأمير

غير المبررة أحيانًا، فإن الكتب التي تتحدث عنها تبررها بأنها كانت لدواعٍ سياسية وليست دينية، ويروي المسعودي في كتابه "مروج الذهب" أن ابن طولون كان يُقَرِّبُ العلماء، حتى إنه عندما علم بوجود أحدهم في الصعيد أرسل لدعوته وكان قبطيًّا، وتفرغ للجلوس معه أيامًا طويلة، وأقام عنده نحو عام كامل، وحاول منحه أموالًا فرفض، وفي النهاية عاد إلى بلدته مُكَرَّمًا. وفي كتاب" سيرة أحمد بن طولون" ذكر مؤلفه أبو محمد البَلَوي أن أحد قوَّاده سطا على خمسمائة دينار من راهب قبطي، فانتقل الأخير من بلدته إلى العاصمة ليشكو للأمير، وكان الحاجب صديقًا للقائد، فرد إليه المبلغ وطلب منه أن يعود لقريته دون أن يشكو، لكن" فاعل خير" سارع بنقل الخبر لابن طولون، فعنّف الحاجب واستدعى القائد، ثم سأل الراهب فأخبره بقصة الخمسمائة دينار، هنا قال له:" كان سبيلك ويلك أن تدّعي عليه بثلاثة آلاف دينار، حتى آخذها لك منه، وأجعل ذلك تأديبًا له ولغيره"، ودفع بقائده إلى السجن.

ليس المقصود من الحكايات السابقة إضفاء المثالية على الأمير، لكنها محاولة لتحليل رؤى متناقضة، لا يُمكنُ الجزمُ بأي منها صحيح أو خطأ. عمومًا انتهى

تشييد المسجد، ليبدأ ابن طولون سرد سلسلة من الأحلام رآها وارتبطت بالمكان.

قصةُ الكنزِ تُنهي مقاطعة المُصلّينَ!

كان يُفْتَرَضُ أن تنتهيَ قصص المسجد بمجرد اكتمال بنائه، لكنه بدأ مرحلة جديدة من الحكايات التي ارتبطت هذه المرة بالأحلام. فيُرْوَى أن مُؤَسِّسَهُ رأى حلمًا أن الله تعالى تجلَّى للقصور المحيطة ولم يتجل للمسجد، فأخبره المفسرون أن كل ما حوله سيختفي مع الزمن ويبقى المسجد وحدَه قائمًا. لم يكن هذا هو الحلم الوحيد؛ حيث طلب ابن طولون من حاشيته أن ينقلوا له كلام المواطنين عن سلبيات المبنى، فذكروا من بينها أن محرابه صغير، هنا ردَّ عليهم أنه رأى النبي عليه الصلاة والسلام في المنام، وهو يخطُّ المحراب بيده، وعندما استيقظ اتجه إلى الموقع في الصباح، ورأى النمل يطوف في نفس الموضع الذي رآه في حلمه، وقرر الالتزام بالحدود التي حلم بها وأكدها النمل! ثم جاء الحلم الثالث ورأى فيه نارًا هبطت من السماء فالتهمت المسجد دون أن تمس البيوت الموجودة حوله، وأخبره المفسرون أن الله تَقَبَّلَ منه المسجد؛ لأن النار دليل على قبول القرابين.

هل كانت تلك الأحلام حقيقية أم اختلقها ابن طولون لهدفٍ ما؟ ولماذا ركزت التفسيرات المتتالية على محاولة إثبات أن الله تقبل المسجد من مُؤَسِّسِهِ؟ تظل

الأسئلة عادةً بلا إجابات دقيقة، لكن المؤشرات تُرَجِّحُ أن الأحلام كانت محاولة لابتداع أسطورة بهدف مواجهة أمرٍ ما، فبعد افتتاح المسجد امتنع الناس عن الصلاة فيه؛ لأنهم يجهلون مصدر المال الذي تمَّ تشييدُهُ به. شعر ابن طولون بالأسى، وجمعهم يوم جُمُعَةٍ وخطب فيهم، وأقسم أنه أنشأ المسجد بكنزٍ عثر عليه؛ أي أن ماله حلال، ومن وقتها بدأ الناس يرتادونه. ويروي المؤرخون أن أعدادهم تزايدت عند المحراب عندما سمعوا بواقعة النمل الذي طاف فيه قبل تشييده.

لم يكن مصدر أموال الأمير مُحددًا بالفعل، بل اعتمد على حكايات غرائبية تعددت فيها وقائع عثوره على الكنوز مصادفةً! لكن الثابت أن ابن طولون كان يُنفقُ الكثير على أعمال الخير، ومن بين القصص المتداولة، أنه كان يجتاز النيل ذات مرة فرأى صيادًا بائسًا وابنَه، فأمر بمنحه ثلاثين دينارًا ومضى، وفي طريق عودته وجد الصياد ملقى على الأرض وقد فارق الحياة وبجواره ابنه يبكي، ظن أن أحدًا قتله طمعًا فى المبلغ الضخم، لكن الفتى أخبره أن أباه ظل يُقَلِّبُ المنحة في يده ثم سقط ميتًا، وبالفعل وجد ابن طولون المبلغ موجودًا، فأعطاه للابن الذى رفض قائلًا:" هذه قتلت أبي وإن أخذتُها قتلتني". هنا استدعى القاضيَ

وعددًا من الشيوخ، وأمرهم بشراء دار للفتى بخمسمائة دينار يكون لها عائد شهري للإنفاق عليه، وقال لمن حوله:" نحن قتلناه.. الغنى يحتاج إلى تدبير، وإلا قتل صاحبه، كان يجب أن يُدْفَعَ إليه دينار بعد دينار، حتى تحصل له هذه الدنانير، ولا تُدْفَعُ له جُملة".

الحكايات المروية عن إيجابيات ابن طولون كثيرة، لكن قصص التاريخ تُشير في المقابل إلى قسوته المُبالغ فيها، حتى إنه مات في سجونه نحو ١٨ ألفَ شخصٍ، وهذا التناقض بين صفات الملائكة والشياطين سيمتدُّ إلى أغلب الحُكَّام الذين يشملهم الكتاب، ربما بسبب عصور حافلة بالصراعات فرضت عليهم ذلك، أو لأنهم بشر مثلنا لا يتقبلون الرأي الآخر، ويتقلبون بين حالات مِزاجية تنتقل بين الأبيض والأسود بسرعة كبيرة، لكنَّ سطوة الحكم تمنحهم فرصة القضاء على أعدائهم، بينما نفعل نحن ذلك في أحلام يقظتنا فقط!

عمومًا مات ابن طولون بعد أن استقل عن الخلافة العباسية، وأسَّسَ الدولة الطولونية، لكن حكايات المسجد لم تُكْتَبْ صفحتُها الأخيرةُ؛ فقد شهد واقعة مثيرة، عندما أصبح مخبأ للأمير الهارب.

نُذُرُ الأميرِ الهاربِ أنقذَهُ!

خلال فترة توتر عاشها عام ١٢٩٣م، وجد الأمير المملوكي الهارب وقتًا لتأمل أحوال المسجد المُهْمَل. ربما كان قد تحول وقتها إلى ما يُشبه الخرائب؛ لهذا فرَّ إليه الأمير لاجين، بعد تورطه مع آخرين في مؤامرة لقتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون.فقد وجد فى مِئذنته ملاذًا آمنًا من مماليك القتيل الذين يطاردونه للثأر منه. تأمَّلَ الجدران المتآكلة والقبة المنهارة وسط الصحن، وَنَذَرَ لله أن يعيد إعمار المسجد إذا أنجاه من محنته، وبالفعل مرت الكُربة، وبعدها بأربعة أعوام أصبح الأمير سلطانًا، فوفى بنذْره ليعيد تطوير المسجد. ووسط نزاعات المماليك الدموية التي تزايدت- تعرض السلطان لاجين للقتل بعد سنتين وشهرين فقط من الحكم، لكنها كانت فترة كافية ليمنحنا تُحفًا فنية ما نزال نتمتع بها.

وسط الصحن تقف القبة شامخة، تخطف نظر الزائر في العصر الحاليِّ، وتُسَجِّلُ إحدى صفحات قصة حياة المسجد بما شهده من معاناة بدأت عقب انهيار الدولة الطولونية التي لم تستمرسوى ٣٨ عامًا فقط. وفي كل مرة كان المكان يجد من يتدخل لإنقاذه من عثرته، ثم يعود إلى وضع سيء.. أو أسوأ، رغم أنه كان

عند تأسيسه عام ٨٧٨م، أحدَ مسجدين فقط تُقامُ بهما صلاةُ الجُمُعَةِ، مع جامع عمرو بن العاص.

عندما تولى الخليفة الفاطمي العزيز بالله الحكم عام ٩٧٥م، اهتم به نسبيًّا، وسار على نهجه ابنه الحاكم بأمر الله، لكن أحواله عادت للتدهور الذي وصل إلى ذروته- حسبما يُقال- فى عهد الخليفة المستنصر عندما أصبح المكان مهجورًا؛ فاستغله المغاربة كاستراحة لهم ولدوابهم خلال رحلتهم إلى الحج. غير أن لوحًا رخاميًّا به يُشَكِّكُ فى صحة هذه الأقوال؛ حيث يُثْبِتُ اللوح أن المسجد وجد عناية في عصر هذا الخليفة عام ١٠٧٧م على يد وزيره بدر الجمالي.

وفي القرن الثالثَ عشرَ الميلادى كان المسجد قد عاد للمعاناة، حيث تروي القصص التاريخية أن الظاهر بيبرس أمر عام ١٢٦٣م أن يُفَرَّقَ على أرباب الزوايا مائةُ إردب من الحبوب بعد خبزها في جامع ابن طولون، مما يعني أنه تحول في تلك الحِقْبة إلى مخبز. وبعد تولي الناصر بن قلاوون الحكمَ فى نهاية القرن نفسه، أمر ببناء مِئذنتين للمسجد، لكنهما تهدمتا فى عصور لاحقة لخلل إنشائي بهما. وتوالت السنوات لتنال من المكان؛ خاصة في القرن الثامنَ عشرَ، عندما تحول إلى مصنع، ثم أصبح ملجأ للعجزة والمسنين، تحت إشراف كلوت بك.

وخلال محطات الاهتمام المتقطعة، ظلت إصلاحات السلطان لاجين واحدة من أهم ما شهده المسجد، فقد أعاد إعماره، ورمم مِئذنته، بل إن البعض يرى أنه بناها من جديد، كما أنشأ المِنبر الموجود بالمسجد حتى الآن، ويقبع حاليًّا في مكان غريب خلف عمود ضخم يخفي أي خطيب يعتليه أمام المُصلين، كما بنى قبة الصحن التى تُعتبر الثالثة فى تاريخ المكان، حيث احترقت القبة الطولونية الأصلية، ليعيد العزيز بالله إنشاءها في القرن العاشر الميلادي، ثم تهدّمت فبناها السلطان لاجين وأنشأ تحتها فسقية للوضوء.

في عام ١٨٨٢ عاينت إدارة حفظ الآثار العربية المسجد، فوجدته مُغلقًا، وبعض أسقفه مفقودة والأخرى آيلة للسقوط، ومنبره شبه مفكك وزخارفه مُشَوَّهَة، والمنازل المحيطة التهمته من كل جانب وحجبته، وتمَّ إعداد خُطة لإنقاذه؛ بدأت بإزالة المنازل المجاورة، ثم ترميمه الذي استمر من ١٨٩٠م حتى ١٩١٨م، وفي شهر مايو من العام الأخير أدَّى الملك فؤاد صلاة الجمعة فيه، وقرر إعادة إقامة الشعائر به، وأمر باستكمال أعمال ترميمه. وقبل نحو عشرين عامًا خضع لعملية ترميم أخرى أثارت الجدل بما تضمنته من أخطاء علمية.

الفاطميونَ..

ماخفيَ كانَ أعظمَ



مسجد الحاكم بأمر الله

" الحاكمُ بأمرِ اللّه"

الأحجارُ تخفي أسرارَ الخليفة

السَّكينة تسيطر على الجامع[٢]، بدرجة لا تتناسب إطلاقًا مع حجم الإثارة التي شهدها عصر تشييده. طرازه إسلامي تقليدي، لكن رائحة العتاقة لا تنبعث منه، والفخامة التي يبدوعليها تُخَبِّىءُ معاناة سنوات طويلة، رفع خلالها المسجد شعار:" ارحموا عزيز قوم ذُلَّ". وللمفارقة العجيبة فإن من بدأ تشييده كان العزيز بالله، الخليفة الفاطمي الذي اختفى اسمه من على مسجده، ليحمل اسم ابنه الذي استكمل بناءه! وأصبح ثاني أكبر مساجد القاهرة بعد" ابن طولون"، وعَبْرَ رحلة عمرها نحو ألف عام عانى كثيرًا، حتى تحوَّل قبل إعادة إعماره إلى مخزن عشوائي للبصل؟!

بخطوات قليلة ينتقل الزائر من شارع المعز إلى صحن جامع" الحاكم بأمر الله"، وإذا كان من عُشَّاق التاريخ فعليه أن يرتفع ببصره سريعًا لينتقل من أحجار الجدران الحديثة إلى المِئذنتين اللتين تحتفظان في ذاكرتهما بتفاصيلَ قديمةٍ، جعلت من الحاكم بأمر الله واحدًا من أكثر الشخصيات المثيرة للجدل في التاريخ المصري.

---

[٢] شارع المعز بجوار باب الفتوح

بدأ الخليفة الأب تأسيسه عام ٩٩٠ ميلادية، ثم تُوُفِّي بعدها بستة أعوام، ليتولى مقاليد الحكم ابنه الذي زاد عمره على الأحدَ عشرَ عامًا بشهور قليلة، فأمر- هو أو الأوصياء عليه- باستكمال العمل الذي انتهى عام ١٠٠٢م، لكنَّ الحاكم قرر زيادة فخامة الجامع، وانتهى ذلك بعد عشر سنوات، وكانت أول صلاة به في الجُمُعَة الأولى من رمضانَ عام ١٠١٣م. في البداية كان الجامع يقع خارج سور القاهرة الشمالي، لكن بعد توسعة الأسوار في عقود تالية، أصبح المسجد بداخله يستأنس بما حوله من مبانٍ اندثر غالبيتها وحلَّت محلها منشآت أخرى في عصور بعدها.

ظلَّت الجدران ترتفع على مدار مراحل البناء، وتزايد معها عُمْرُ الخليفة الطفل، الذي تشرَّب لعبة السياسة وأتقنها، فأطاح بوزراء كبار حاولوا التلاعب به وتحويله إلى مجرد واجهة، وفرض أنفسهم كحكام من الظل، وكان مصيرهم القتل الذي أنهى جبروتهم. ومن بينهم وزيره القوي برجوان، صاحب الحارة الشهيرة بشارع المُعز، التي ما تزال قائمة حتى الآن، ضاق الخليفة بسيطرة الوزير عليه، فأرسل من قتله خلال وجوده بالحمام، وقام بمصادرة أمواله وممتلكاته، وكان مما تضمنته مقتنياته المنقولة مائتا مليون دينار ذهب، وخمسين

إردبًا من الدراهم الفضية!! والإردب لمن لا يعرف من وحدات الأوزان، ويعادل نحو ١٥٠ كيلوجرامًا أو أكثر، وللدلالة على ضخامة مقتنياته قيل إنه تمَّ نقلُها من بيته بالحارة الشهيرة إلى قصر الخليفة على مراحل، فكان يتمُّ نقلُ دفعتين منها يوميًّا على مائتي جمل، واستمر ذلك أربعين يومًا! هذا بخلاف ما كان يملكه من منازلَ وضِياعٍ وعبيد وجوارٍ وبهائمَ! وفي المصادرات التي قام بها حُكام العصور التالية لممتلكات أمرائهم المغضوب عليهم، كان الأمر يتكرر كثيرًا، وبشكل يثير الدهشة؛ لأنه يُثبتُ أن الفساد يستشري منذ القدم، وأن نهب ثرواتنا مُزمن.

تعرض المسجد لتحولات عديدة أدت لترميمه عدة مرات، وبدءًا من القرن الخامسَ عشرَ لاقى إهمالًا شديدًا وأصبح أطلالًا، حتى إن جنود الحملة الفرنسية استخدموا مِئذنتيه فى القرن الثامنَ عشرَ كبرجي مراقبة، ثم تحوَّل مكانه إلى مصنع، قبل تشييد مبنى بداخله أصبح بذرة لأول متحف للتراث الإسلامي، وبعد نقل مقتنياته إلى متحف الفن الإسلامي بباب الخلق، استضاف المسجد مدرسة ابتدائية بداخله، أما بقيته فكانت مخازن شبه عشوائية لتجار البصل والليمون، حتى تقدمت طائفة البهرة الشيعية قبل عقود بطلب

لترميمه، لكن الترميم لم يكن فى الحقيقة سوى إعادة بناء، فالمِئذنتان فقط هما الباقيتان على حالتهما القديمة، تحتفظان فى ذاكرتهما بالحقيقة الغائبة، حول ادعاء الخليفة للألوهية، وغيرها من القرارات العجيبة، ومن بينها حظر أكل الملوخية!

قوائمُ الممنوعات

في الليل يبدو الجامع أكثر جاذبية، بإضاءته التي تمنحه قدرة إضافية على الإبهار. الزائرون المعتادون سينشغلون بالمشهد الخلاب عن حكايات لم ولن يتمَّ حسمُ حقيقتها من زيفها، فقد امتدت التفسيرات المتعارضة إلى الكثير من قرارات الحاكم بأمر الله، ولم ينته الجدل الذي أثارته رغم مرور أكثر من ألف عام على رحيل صاحبها. من بينها منع زراعة الملوخية والقرع والترمس، وحظر بيع الزبيب والعسل الأسود، والنهي عن صيد الأسماك التي ليس لها قشور! وغيرها من قرارات توحي بأن صاحبها يعاني مسًّا من جنون، أو شذوذًا فى التفكير حسبما يرى وول ديورانت في كتابه" قصة الحضارة". بينما يؤكد المدافعون عنه أنه منع زراعة النباتات الورقية مثل الملوخية، لتصبح الأراضي كلها مخصصة لزراعة الحبوب التي شحَّتْ فى عصره، أما الأسماك غير القشرية مثلَ القراميط فتتغذى على الحشائش التي تعوق انسياب المياه، وبهذا فإن عدم صيدها يجعل الري أكثر كفاءة. إذا كانت قراراته تحمل منطقا وجيهًا، فلماذا حرَّم خروج

النساء إلى الشوارع؟ قراره الأخير تحديدًا أسهم في ابتكار خدمة "توصيل الطلبات للمنازل"، حيث كان الباعة يتكفلون بذلك لِتُدَلِّيَ المرأة حبلاً تسحب به مشترياتها. قرار" حظر تجوال" السيدات امتدَّ بطبيعة الحال إلى الحمامات العامة، ولأن الرجل حريص على تطبيق القوانين بنفسه فقد كان يتجول في الشوارع. وذات يوم مرَّ بحمام وسمع ضجيج السيدات به، فأمر بإغلاق بابه عليهن، وبقين بداخله حتى لقين حتفهن! معارضوه لم يقتنعوا بدفاع مريديه، فأكدوا أنه منع بيع القرْع؛ لأن أبا بكر الصديق كان يحبه، كما كانت السيدة عائشة تميل إلى الملوخية، وبهذا يكون القرار في إطار حربه على السُنّة؟!

للحقيقة إذن أكثر من وجه، يعتمد كل منها على زاوية النظر لواقعةٍ ما، لكن الدفاع عن الحاكم ظل باهتًا في مواجهة حكايات منحها التاريخ قوة الحضور، وقد يرجع ذلك لانتصار المذهب السُّني، ليصبح صوته هو المُسيطر، بعد انتهاء الخلافة الفاطمية التي لم تنجح في نشر فكرها بين العامة، لكن المقريزي يشير إلى أن الهجمات المرتدة بما تتضمنه من" أخبار شنيعة" عن الفاطميين، جاءت من المشارقة البغداديين والشاميين، أما كتابات المصريين فلم تتضمن ذلك حسبما يؤكد. إذا كان السبب حربًا مذهبية، فلماذا ارتكز معظم الهجوم على الحاكم دون

بقية الخلفاء الفاطميين، الذين لم يواجهوا القدْر نفسه من الهجوم الحاد؟ ولماذا سيطرت وجهة النظر السلبية على الناس، وكان رد فعلهم هو اعتزال المسجد وإهماله؟ ربما يكون السبب ما تردد عن ادعائه الألوهية، وهو ما ينفيه البعض تمامًا، رغم أن هناك حكايات عديدة عن أشخاص ظهروا فى عصره دَعَوْا إلى تأليهه، وأنه كان يُقرِّبُهم إليه ويحتفي بهم، حتى ثارت فتنة ذات مرة، عندما دخل أحدهم المسجد مع أتباعه ودَعَوا لعبادة الحاكم، فاستنكر الناس كلامهم لكنهم تمادَوْا، وقدموا للقاضى ورقة مكتوباً بها:" بسم الحاكم الله الرحمن الرحيم"، لم يتمالك المواطنون العاديون أنفسهم وقتلوا بعض المارقين وفرَّ الباقون وزعيمُهم، وعندما علم الحاكم بأمر الله أصدر أمرًا بالقبض على أربعين رجلًا شاركوا في قتل الداعين لتأليهه، فتمرَّد عدد من الجنود وانحازوا للمصريين، وهاجموا منزل من أطلق الدعوة، وقتلوا عددًا من أتباعه، لكنه نجح في الفرار إلى قصر الحاكم، الذي بدأ التنكيل بالأهالي بطرق مختلفة. كان ذلك عام ١٠١٩م، الذي شهد واقعة أخرى. فخلال تجوُّل الخليفة فى المدينة شاهد دُمْية لامرأة ترفع يدها بورقة تحتوي شتائم موجهة إليه، فأمر بإحراق الكثير من البيوت، وهاجم الجنود الأهالي بالأسلحة لمدة ثلاثة أيام، ثم أمر بإيقاف

المعركة.. ويُروى أن أحد أتباعه عندما رأى حجم الدمار قال له إن ملك الروم لو دخل مصر لم يكن سيعجبه ما حلَّ بها من دمار، كانت العبارة بالغة الدلالة، لكنها كانت كفيلة بأن يُغْضِبَ الحاكم فيأمر بقتل قائلها.

عموما يظل الخلاف حول صحة هذه القصص قائمًا؛ يصلح لملء مجلدات كاملة، بقصص غريبة لا تخلو من وسائل عقاب ابتدعها الرجل، أصبحت تُعَدُّ في عصرنا الحديث من جرائم الآداب؟! فقد كان يُطبِّقُ العدالة بمنتهى السفالة. يركب حماره ويتجول بالأسواق ومعه عبد أسود، فإذا اكتشف تاجرًا يتلاعب بالأسعار أمر العبد بأن يغتصبه؟! كما يظل سفك الدماء من الملامح الأساسية التي وصمته؛ لهذا فضَّل العالِمُ الكبير الحسن بن الهيثم ادعاء الجنون، ليحمي رقبته من سيف طائش..

خلال وجود ابن الهيثم فى العراق، ردَّدَ أنه قادر على ضبط فيضان النيل لو أُتيحت له الفرصةُ، وسمع الحاكم بذلك، فدعاه إلى مصرَ، ووصل بالفعل وبدأ إجراء تجاربه، لكن النهر الخالد قهر طموحاته، وعندما فشل في تطبيق نظريته على أرض الواقع، ادعى الجنون لينجو من الموت، لكن الخليفة أبقاه قيد الإقامة الجبرية فى منزله لفترة، وكان خوف العالم الكبير مُبَرَّرًا، حيث يذكر المؤرخ ابن

إياس أن الحاكم قتل عددًا لا يُحصى من العلماء والفقهاء والأعيان. وربما شعر ابن الهيثم بالندم؛ لأن لسانه انفلت بمقولة ترويض الفيضان، لكن حظه السعيد جعله ينجو من الموت بالإقامة الجبرية، ويستغل وقته فى مواصلة كتابة بعض مؤلفاته!

سرٌ اختفاء المُستبدّ العادل!

الحكايات المتداولة عن الحاكم بأمر الله تنمُّ عن شخصية بالغة التناقض، فقد كان مستبدًّا عادلًا، لا تأخذه رحمة بمعارضيه، وفي الوقت نفسه يجول المدينة ليتفقد أحوال الرعية ويَطَّلِعُ على مشاكلهم. أمر بسب بعض الصحابة حينًا ثم قرر منع ذلك. أحسن معاملة اليهود والمسيحيين لفترة ثم اضطهدهم، قبل أن يعاملهم من جديد بالتي هي أحسن. لهذا يصفه المقريزي بأنه" كان قليل الثبات سريع الاستمالة، إذا مال إلى اعتقاد في شيء أظهره وحمل الناس عليه، ثم لايلبث أن يرجع عنه إلى غيره فيريد الناس ترك ماكان قد أخبرهم به، والمصير إلى ما استحدثه ومال إليه"، ليصنع بتناقضاته حالة من الغموض ارتبطت حتى بنهايته الغرائبية.

في عام ١٠٢١م كان الخليفة في طريقه إلى المقطم ليواصل تأملاته الفلكية التي ظل مُغرمًا بها، لكنه اختفى في أجواء تشبه أحداث فيلم بوليسي، ولم يكن عمره

يتجاوز ٣٦ عامًا وقتها، وظلت جثته مفقودة لا يُعْرَفُ مكانُها حتى الآن. هناك من قال إنه تعرَّض لمؤامرة دبرتها له أخته ست المُلْك بعد أن اتهمها بالفجور، وأشاروا إلى أنها اتفقت على ذلك مع أحد الأمراء، وأقنعته أنه يُدبِّر قتلَها وقتلَه.. ووعدته بالوزارة. وتبدو الإشارة إلى نية الحاكم قتل ست المُلك مع الأمير ذات دلالة خاصة إذْ وردت بعد اتهامها بالفجور؛ خاصة مع ما يحكيه ابن إياس عن أنها خرجت مُتخفِّية أثناء الليل، وذهبت إلى أمير اسمه سيف الدين بن دواس في منزله، وكان من أكبر أمراء الخليفة، فقالت له:" أنت تعلم ما قد فعله أخي بالرعية من هذه الأفعال الشنيعة، وقد عوَّل على قتلي وقتلك، وإذا عوَّل على شيء فعله". وقبل أن يَفترض البعضُ وجود علاقة خفية بين ست الملك والأمير سيف الدين- نُشير إلى أن ابن إياس ذكر في بداية" المشهد" السابق أنها عرَّفت الأمير بنفسها؛ أي أنه كان لقاؤهما الأول، عمومًا سألها الأمير عما يجب عليهما فعلُهُ فأشارت عليه بقتله، وعندما سألها عن آلية التنفيذ قالت له:" اندب إليه جماعة من العبيد يقتلونه إذا خرج إلى حُلْوان، فإنه ينفرد في ذلك المكان بنفسه، فيخرجون عليه ويقتلونه هناك، وتكون أنت المدبِّرَ للمملكة من بعده، وتُولِّي ابنَه الأميرَ عليّ". مشهد سينمائي مُحكم، ظهرت فيه

حُلوان بديلًا عن المقطم الذي شاع أن الحاكم بأمر الله قُتِلَ فيه.. لا بدَّ أنه مُستمدٌّ مما حدث بعد اختفاء الحاكم، فقد أصبحت ست الملك والأمير سيف الدين هما القائمين بأمور الدولة في عهد ابنه.. لكن القصة تنضَمُّ إلى غيرها من الحكايات المُختلَف عليها. فهناك من ينفي عنها التهمة ويؤكد أنها رَجَتْهُ ألا يخرج هذه الليلةَ؛ لأن قلبها "مقبوض".. والسؤال: كيف تمكَّن رواة القصص، على اختلافها، من الوصول إلى تفاصيلها، رغم أنها تدور في غرف مغلقة؟! تساؤل مهم يجب أن يظل حاضرًا؛ خاصة أن الرواة يذكرون عباراتٍ- وردت على ألسنة البعض- لا يُمكن أن تنتقل بهذه الدقة إلا إذا تمَّ تفريغُ الكاميرات وأجهزة التسجيل المتناثرة بين الجدران!! تناقضت التفسيرات، ليس فقط بين أصحاب الرؤى المتعارضة، بل امتدَّ التناقض أحيانًا إلى الراوي الواحد. فقد ذكر المقريزي في كتابه" اتعاظ الحُنَفا" أن ست المُلك دبرت المؤامرة ودفنته في دارها، لكنه في" الخطط" يبدو متشككًا فيشير إلى أن المشارقة هم مطلقو الاتهام، وذكر أنه بعد اختفاء الحاكم بسنوات ظهر رجل من الصعيد واعترف بأنه قتله. ويظل للأسطورة حضورها، فقد أشاع مريدوه أنه لا يزال حيًّا حتى الآن؟!

يرى آخرون أن الحاكم كان ضحية مؤامرة من أسرته بعد أن قرر تغيير نظام الخلافة المُتبع، وإبعادها عن ابنه؛ لكنَّ اختفاءَه الغامض أعاد الأمور إلى سياقها المعتاد، وانتقلت الخلافة لابنه وهو في سن السادسةَ عشرةَ، وحمل لقب الظاهر لإعزاز دين الله، لكنَّ ست المُلْك ظلت مُسيطرة على شئون الدولة حتى وفاتها عام ١٠٢٤م، بينما كان الظاهر منغمسًا في الملذات وشُرب الخمر، وأباح أكل الملوخية وجميع أصناف الأسماك، وأمر بفتح كنيسة القيامة في القدس، بعد سنوات من تخريب الحاكم لها.

أكثرُ من حاكمٍ بأمرِ اللهِ

الغريب أن الحاكم بأمر الله لم يكن الخليفة الوحيد الذي حمل هذا الاسم في مصرَ، فهناك اثنان حملاه بعد سنوات طويلة من انهيار الخلافة الفاطمية، لكن الأكثر غرابة أنهما كانا ينتميان للمعسكر العباسي المضاد الذي ظل لعقود طويلة على خلاف حاد مع الفاطميين. والعباسيون هم الذين أشار لهم المقريزي أكثر من مرة عند حديثه عن المشارقة الذين يبالغون في التشهير بالفاطميين.

كانت الخلافة دائمًا فكرة برَّاقة، تمنح الشرعية للحاكم حتى لو لم يستحقها؛ لهذا حاول ابن طولون والإخشيد من بعده أن يقنعا الخليفة العباسي بالانتقال للقاهرة والإقامة بها، لكن لم يُكْتَبْ لهما التوفيقُ، وعندما تولى سيف الدين قطز

الحكم قرر إحياء الفكرة لإضفاء الشرعية على حكمه وحكم المماليك من بعده؛ فدعا أميرًا من سلالة العباسيين اسمه أبو العباس أحمد ليأتي من دِمَشْقَ، لكن قطز تعرض للقتل، وجاء الظاهر بيبرس بأمير آخر هو أبو القاسم أحمد، وأعلنه خليفةً للمسلمين في ١٢٦٠م، وأطلق على نفسه اسم المستنصر بالله، وعندما اُسْتُشْهِدَ بعدها بعامين في معركة ضد التتار، عاد الظاهر بيبرس ليستدعي أبا العباس الذي تولَّى الخلافة بعد إثبات نسبه، واختار لنفسه لقب الحاكم بأمر الله، وظل في الخلافة أربعين عامًا. أما الخليفة الثاني الذي حمل اسم الحاكم بأمر الله، فهو أبو العباس أحمد بن المستكفي، وتولَّى الخلافة عام ١٣٤١م، ومات بالطاعون بعد أحدَ عشرَ عامًا.

لا يذكر الكثيرون اسمي الخليفتين، بينما يظل الحاكم بأمر الله الفاطمي حاضرًا، ولا يرتبط الحضور القوي أو الباهت بشخصية حامل اللقب فقط، بل يرتبط أيضا بقوة الخلافة، فقد كانت في أغلب عصر الفاطميين قوية ومؤثرة، مثلما كانت لدى العباسيين وقت ازدهارهم، أما الخلافة في التجربة المملوكية، فكانت مجرد واجهة شكلية، تُضْفِي شرعيةً على حكم المماليك. ومنذ تولي الظاهر بيبرس حتى سقوط طومان باي في نهاية الدولة المملوكية، تولى سبع

عشرة خليفة، كانوا لعبة في أيدي الحكام والأمراء؛ يتولون تعيينهم وعزلهم والتلاعب بهم، دون أن يكون لهم رأي أو سلطة، المهم هو حضورهم عندما ينقلب حاكم على الآخر، لمبايعة السلطان الجديد؟!



مسجد الأقمر

"الأقمرُ "

بينَ نفوذ الوزراء وسطوة" الحشاشينَ"

في شارع المعز الذي يتميز بأبنيته الشاهقة، يبدو جامع الأقمر[٣] قزمًا بين عمالقة، لكنه يعرف كيف يفتن الأنظار بنقوش واجهته التي كانت الأولى من نوعها في العمارة الإسلامية بمصرَ.. صمدت جماليات النقوش في وجه تقلبات الزمن لتصل إلينا ومعها ملامح فترة عجيبة من تاريخ الخلافة الفاطمية، أصبح الوزير فيها أقوى من الخليفة، وكلمته هي الأكثر حسمًا؛ فقد تُحدد مصائر الحُكام، لدرجة أن منصب الوزارة صار يُوَرَّثُ من الأب لابنه؟!

بعد تجاوز المدخل يشعر الزائر أنه أمام حالة غريبة، فصحن المسجد بكل ما يحيطه من جدران يبدو مائلًا بالنسبة للواجهة التي كانت أول واجهة تقام بمحاذاة الشارع. قبلها كان تأسيس المساجد يُراعِي اتجاه القبلة، ويبدأ بناء الجدران على أساس هذا الاتجاه، دون أن يأخذ وضع الشارع الخارجى في الاعتبار. لا توجد نماذج باقية؛ لأن معظم الجوامع السابقة لم تصمد في مواجهة الزمن. لكن يُحسب لمهندس" الأقمر " أنه نبَّه من جاءوا بعده إلى حق الطريق فتمت مراعاته. لكن السؤال: لماذا لا نشعر بأن هناك مَيْلًا في الفضاء الداخلي

---

[٣] شارع المعز

بالمساجد التي اتبعت الأسلوب نفسه بعد ذلك؟ التبرير من وجهة نظري هو أن ضخامة الجوامع التالية أتاحت فرصة إنشاء ممرات يسلكها الزائرون، تنقلهم من البوابة إلى الصحن، وهو ما يجعل الإحساس بالشارع الخارجي يتناقص كلما اتجهوا إلى الداخل. ولأن مساحة" الأقمر" صغيرة، فإن عملية الانتقال من الباب إلى الصحن تصير سريعة ومباشرة، مما يحفظ للإحساس بالاختلاف.. طزاجته!

مؤسس الجامع هو الخليفة الآمر بأحكام الله. تولى الخلافة عام ١١٠١م، وعمره خمس سنوات وشهر، وكان الوزير وقتها هو الأفضل شاهنشاه الذي ورث الوزارة عن أبيه بدر الدين الجمالي. كان الخليفة الجديد طفلًا، لكن يبدو أنه خلال تقدمه التدريجي في العمر، وعى دروس التاريخ جيدًا، وعندما أصبح في ريعان شبابه، كان قد استوعب الدرس من جَدِّهِ الحاكم بأمر الله الذي تخلص من وزرائه كي يُفلت من سيطرتهم عليه. غالبًا بدأ الآمر يضيق من الصلاحيات التي منحها شاهنشاه لنفسه. تعرَّض الوزير لمحاولتي اغتيال فاشلتين.. لم يكن هناك دليل دامغ على وجود دور للخليفة الشاب فيهما، لكن الثالثة نجحت في عيد الأضحى عام ١١٢١م. ضحى الخليفة بوزيره وأشاع أن طائفة الحشاشين

قتلته، ثم اختار وزيرًا آخر هو المأمون البطائحي، وبعدها بفترة قليلة تعرَّضَ جعفر شقيق شاهنشاه للقتل، ويُقال إن البطائحي أوعز لأحد خُدَّامه بالقضاء عليه؛ لأن أباه بدر الجمالي كان قد أوصى بالوزارة له خلفًا لشقيقه!

بعد قتل الوزير القوي مضت الأمور في سياقها المعتاد، حيث بدأت عملية مصادرة ممتلكاته؛ حيث يقال إنه تمَّ العثور لديه على ستمائة مليون دينار ذهبي، ومائتين وخمسين إردبًا من الفضة، وسبعين ألف ثوب حريري ملوَّن، وخمسمائة صندوق لا يُعْلَمُ ما بها! بالإضافة إلى ممتلكاته الثابتة من البيوت والأراضي وغيرها.

" الحشاشونَ".. طائفةٌ بنكهة الأسطورة

قد يبدو ظهور طائفة الحشاشين في القصة السابقة غريبًا لمن لا يعرفون الكثير عن هذه الجماعة العجيبة، لكن المُطَّلِعين على أسرارها يرون حضورها طبيعيًا، في سياق زمني فرضت فيه ممارساتها العنيفة التي أصبحت أشبه بالأساطير، فقد واجه أفرادها ثلاث ممالك، هي العباسية والسَّلْجوقية والفاطمية، وتمكَّنوا من قتل قيادات يصعب الوصول إليها؛ فتُرْوَى عنهم حكايات قد تصلح بعد تحديثها أن تكون موضوعاتٍ دسمةً لأفلام المخابرات في عصرنا الحديث. وكان

المسئول عن ظهور" الحشاشين" بشكل غير مباشر هم الفاطميين، رغم أن بؤرة تمركز الطائفة كان إيران!

ينتمي مؤسسها حسن الصباح للشيعة الإثنى عشرية، وعندما رغب في الانتماء للشيعة الإسماعيلية كان ينبغي أن ينال" البركة" من الخليفة الفاطمي في القاهرة. رحل عن بلدته متجها إلى مصرَ، واستقر ببلاط الخليفة المستنصر بالله، وأمضى فترة ثم غادر مصر؛ لكنَّ هناك روايتين لرحيله: الأولى أن الوزير القوي بدر الجمالي أمر بترحيله، وأما الثانية فنستعرضها فى السطور التالية.

الخليفةُ يقتلُ وزراءَهُ!

قبل تولي الآمر الخلافة بسنوات كانت الدولة الفاطمية قد بدأت تدخل منعطفًا جديدًا، فاتسع نفوذ الوزراء، وثبَّت أمير الجيوش بدر الجمالي مكانته في عهد المستنصر بالله جد الآمر بأحكام الله، وعند وفاة الوزير القوي كان قد مهد الطريق لابنه الأفضل شاهنشاه، فتولى الوزارة وبعدها بشهور مات المستنصر، وتدَّخل الوزير لينقل الخلافة إلى المستعلي بالله، بدلًا من أخيه الأكبر نزار، لكنْ هناك من يقول إن ذلك تمَّ بوصية من المستنصر نفسه، وثار نزار وأنصاره بقيادة حسن الصبَّاح، لكن شاهنشاه هزمهم وأسر الأمير المتمرد عام ١٠٩٥ بعد عام واحد من تولي أخيه، بينما فرَّ الصباح ليؤسس طائفة الحشاشين، وتظهر من

جديد القصة المألوفة لدى الشيعة بأن الخليفة نزار لا يزال حيًّا وسوف يعود، وأنه آخر الأئمة.

كان الأفضل شاهنشاه هو المتحكم في أمور الدولة، وحاول التحالف مع الصليبيين ضد السلاجقة لكنهم رفضوا، وسقطت القدس في أيدى الصليبيين الذين انهزم أمامهم الأفضل، وتُوُفِّي المستعلي بالله بعد سنوات قضاها خليفة شكليًّا؛ لأن الوزير القوي هو الذي كان الحاكم الفعلي للسلطنة، وتولى الآمر بأحكام الله الخلافة ليرث معها الأفضل شاهنشاه، وتحكَّم الوزير في البلاد لسنوات طويلة قبل أن يُقْتَلَ، ويقال إن الصبَّاح احتفل أسبوعًا كاملًا عندما بلغه خبر قتله.

بعد اغتيال شاهنشاه قرر الآمر أن يبني مسجده، وأوكل الأمر لوزيره الجديد البطائحي الذي نجح في تشييد هذه التحفة المعمارية عام ١١٢٥م، مكان دير العظمة الذي كان يضم عظام عدد من شهداء الأقباط، كما يقول المقريزي، الذي أشار أيضًا إلى أن حجارته بيضاء تشبه لون القمر، ومن هنا جاء اسمه. لكن ابن إياس يذكر قصة مغايرة، فيشير إلى أنه بعد مقتل الأفضل شاهنشاه تولى الوزارة أبو عبد الله الأقمر، وهو الذي بنى الجامع وحمل اسمه، واستمر في

الوزارة نحو أربع سنوات، قبل أن يقبض عليه الخليفة ويقتله ويصادر أمواله، ليتولى البطائحي الوزارة. ويمكن الوصول إلى حل وسط حتى يحسم المتخصصون في التاريخ هذا الأمر، فقد يكون البناء قد اكتمل في عهد البطائحي، الذي كتب اسمه مع الخليفة في لوحة التأسيس. لم يذكر التاريخ أن ذلك سببٌ فى خلاف، لكنه ينمُّ عن بَدْء تعاظم دور الوزير، ربما تكون هناك ممارسات أخرى أرَّقت الخليفة، مما دعاه إلى القبض على الوزير وصلبه ومصادرة أمواله، لكن ابن إياس يبدو منحازًا للبطائحي، حيث يؤكد أن ما تعرَّض له تمَّ بدون أي ذنب صدر منه.

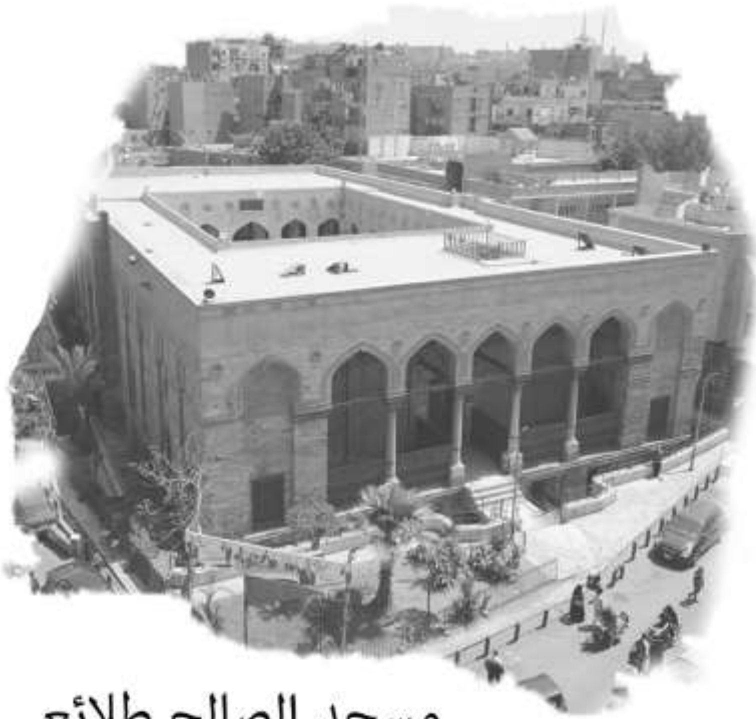
تأتي مؤامرات الخليفة على وزرائه في سياق تاريخي يستحق دراسة مُنفصلة، لكن نفوذ الوزراء عاد إلى قوته في عصور لاحقة. ويبدو طموح من يتولى الوزارة ضاربًا في أعماق الدولة الفاطمية، نظرًا لتولي بعض الخلفاء الحكم وهم أطفال، وقد بدأت المواجهات في عصور مُبكرة، فعندما تولى الحاكم بأمر الله الخلافة في طفولته، تحكَّم فيه وزير اسمه أبومحمد بن عمار، ثم ظهر من يتآمر عليه وهو أبو الفتوح برجوان، وكان برجوان مُقرَّبًا من العزيز بالله والد الحاكم، حتى إنه ولّاه أمر القصور وأوصاه بالابن، وهو ما فعله عندما أراحه بالفعل من سطوة ابن

عمار، لكن برجوان بدأ يمارس اللعبة نفسها، فاستهان بالحاكم وانشغل بالملذات ونجح في تكوين ثروة ضخمة، ولم ينتبه إلى أن الخليفة لم يعد طفلًا، وبالفعل قام بقتل الوزير، ثم تخلَّص من رجاله في القصر والجيش.

في عصور اعتنت بضخامة البنيان تصبح مساحة مسجد" الأقمر" المحدودة مثيرة للدهشة. هل كانت جماليات البناء أكثر أهمية لدى المصمم من ضخامته؟ ربما. فنقوش الواجهة بديعة، تخطف أنظار أي زائر عادي. تشبه شمسًا تنطلق أشعتها في اتجاهات عديدة، ويؤكد المتخصصون أنها تظهر لأول مرة في العمارة الإسلامية المصرية. رأى بعضهم أن هذه هي سمات العمارة الفاطمية، لكن عمومًا لم يصل إلينا منها الكثير، ليظل" الأقمر" متفردًا بجمالياته التي ألهمت مهندسي العصور التالية، وبدءوا فى تقليدها، أما مِئذنته الأصلية فتهدَّمتْ وأعاد بناءها الأمير يلبغا السالمي عام ١٣٩٦م، ثم تهدَّم جزء منها مرة أخرى سنة ١٤١٢م.

بعد أن تخلص الآمر من البطائحي، خرج الخليفة في إحدى جولاته، وفاجأه مسلحون وطعنوه بسيوفهم. مرافقوه قليلو العدد فشلوا في حمايته، وبعد إعادته إلى قصره مات متأثرًا بجراحه. لم يكن عمره يتجاوز أربعة وثلاثين عامًا، قضى

٢٩ منها في الحكم، ولم يبق من منشآته المعمارية الكثيرة في مدن عديدة، سوى هذا المسجد البديع.



مسجد الصالح طلائع

" الصالحُ طلائعُ"

فشلَ في الاحتفاظ برأس الحسين

يحتل موقعه[٤] الفريد، متفاخرًا بأنه كان أول مبنى ذي شأن خارج باب زويلة، فقد كان العابرون لسور القاهرة، يجدون مساحة شاسعة من الفراغ عند اتجاههم يسارًا إلى الدرب الأحمر. وجاء مسجد الصالح طلائع ليعيد رسم خارطة المنطقة، ويسهم في إعمارها تدريجيًّا. لكن قصته تُصبح أكثر إثارة عندما نعلم أن من بناه لم يكن يقصد أن يُشيِّد جامعًا فقط، فقد أعده لتُدفن فيه رأس الإمام الحسين.

كان الصالح طلائع بن رُزَيْك وزيرًا ذا سطوة في عهد الفاطميين، وقصته التي تتداولها الكتب تحتاج إلى مراجعات عديدة، وكذلك كل ما يرتبط بقصته مع الرأس، فقد تولَّى الوزارة في عهد الخليفة الفائز بنصر الله. كان وزير اسمه عباس قد قتل الخليفة السابق الظافر بالله، ثم دخل قصر الحريم وجاء بالابن لتنصيبه، كان عمر الفائز وقتها قد تجاوز السنوات الخمس بعدة أيام، ويُقال إن عقل الخليفة الطفل اختل، بعد أن رأى أعمامه قتلى قُبيل مبايعته، ولم يلبث أن تُوُفِّيَ وعمره إحدى عشرة سنة ونصفًا، ليخلفه ابن عمه العاضد بأمر الله عام

---

[٤] الخيامية بالقرب من باب الخلق

١١٦٠م، وكان عمره تسعة أعوام ونصفًا (يذكر ابن إياس أن عمره كان ٢٤ عامًا). كيف دخل الصالح طلائع سياق الأحداث إذن؟

عندما قتل الوزير عباس الخليفة السابق زعم أنه خرج في مركب بالنيل وغرق- لم يصدقه أحد؛ لكن سطوته منعت الكثيرين من التشكيك في القصة، ولم يستطع أفراد البيت الحاكم نسيان ثأرهم، وبمجرد أن حانت الفرصة شجعوا الخليفة الطفل على الاستعانة بطلائع بن رُزَيْك، وكان على منطقة تُدعى منية ابن خصيب، فجمع جيشًا من عربان الصعيد واتجه إلى القاهرة، وشعر عباس بالخطر فجمع كل ما استطاع من الأموال والتُحف، وفرَّ إلى الشام بهدف الوصول إلى بغداد، واصطحب معه ابنه نصر، الذي كان سببًا أساسيًا في قتل أبيه للخليفة السابق. ونذكر عبارات ابن إياس عن الخليفة القتيل كما هي: "وكان يهوى ابن وزيره عباس وامتُحن به، وكان ينزل إلى بيت الوزير ويبات عنده في غالب الأوقات، قيل إنه أهدى إلى ابن الوزير في بعض الأيام عشرة آلاف دينار، وصحفة بلور فيها ألف حبة من اللؤلؤ الكبار، وألف نافجة من المسك، فلم يثمر شيئًا من ذلك مع الوزير ولا ابنه، ولازالوا على الظافر حتى قتلوه أشر قتلة" . العشق الممنوع إذن كان سبب قتل الخليفة، ثم الانقلاب على

الوزير الذي لم يلبث الصالح طلائع أن أعاده ضمن صفقة مع ملك الصليبيين، وتمَّ شنقُ عباس وابنه على باب القصر.

بعدها تزايدت هيمنة الوزير الجديد، فقد ثأر للخليفة القتيل فأرضى القصر، وعامل الجنود بشكل جيد فأحبوه، فضلاً عن أن مصر خلال وزارته كانت خاضعة لخليفتين طفلين، مما فتح له باب التحكم في مقاليد الحكم. كان يمكن أن يلقى مصير وزراء الخليفتين الحاكم بأمر الله والآمر بأحكام الله اللذين تسلما الخلافة في طفولتهما، ثم تخلصا في شبابهما من استبداد الوزراء بأساليبَ متشابهةٍ، خاصة أن العاضد تحديدًا استمر فى الحكم حتى اقترب عمره من الواحد والعشرين عامًا، لكن ابن رُزَيْك قُتِلَ فى العام نفسه الذي تولى فيه العاضد الخلافة، أو بعدها بعام أو اثنين؛ فقد اختلف المؤرخون حول تاريخ وفاته، وتذكر بعض كتب التاريخ أن العاضد تزوج ابنة وزيره، مما زاد الأخير قوة على قوته، وهو ما يعنى أن التواريخ تحتاج إلى مراجعة؛ لأن هذا يعني أن الخليفة تزوج وعمره يدور حول عشر السنوات؟! أو يضفي على عمره الذي ذكره المؤرخ ابن إياس مصداقية أكبر.

عمومًا اكتسب الوزير قوته الاستثنائية، وتظل واقعة الزواج دون معنى إذا كان القصد منها إثبات سطوته، لكن مراجعة التاريخ فيما يتعلق ببقية القصة تظل مطلبًا مُلِّحًا، حيث بدأ الوزير بناء مسجده عام ١١٦٠م، بهدف دفن رأس الحسين به، لكن الخليفة الفائز رفض، وقال إن الرأس لا يكون إلا داخل القصور الزاهرة، وتغلَّب رأيه على رأى الوزير، فتمت إقامة المشهد الحُسَيْني الحاليِّ في قصر الزمرد، وهو مالا يتماشى مع المنطق؛ لأن سن الخليفة وقت بَدْء البناء كان أحد عشر عامًا فقط، ولا يُعقل أن يتغلب منطقه على رأي الوزير القوي. وتذكر رواية أخرى أن من اعترض على دفن الرأس في مسجد الصالح طلائع هو الخليفة الظافر أبو الفائز، خاصة أن الرأس وصل من عسقلان إلى مصر عام ١١٥٤م، لكن حتى لو ثبُت ذلك فإن الهدف من بناء المسجد يصبح غير منطقي؛ خاصة أن بَدْء تشييدِهِ يكون فى هذه الحالة بعد حسم الأمر نهائياً بسنوات. بالإضافة إلى سبب آخر مهم، هو أن وزير الخليفة الظافر لم يكن الصالح طلائع، بل عباس كما سبق أن ذكرنا. وعندما تحدث حسن عبد الوهَّاب عن المسجد في كتابه "تاريخ المساجد الأثرية"، أورد ما ذكره المؤرخون عن موقف الخليفة الطفل دون أن يُعلِّق، رغم أنه ذكر خلال حديثه

عن مسجد الحُسين قبلها بصفحات، أن الرأس وصل إلى القاهرة عام ١١٥٣م؛ أي وقت خلافة الأب، وحُمل في سرداب إلى قصر الزمرد، حيث أقيمت قبة المشهد الحُسَيْني في العام التالي. وهكذا تظل حكاية رأس الحسين موضع جدل مُزمن؛ خاصة مع تعدد الأضرحة التي تؤكد كل فئة أنها تضمُّها.

الرأسُ.. حائرٌ بينَ المشاهد

في سنوات عمري المبكرة كنتُ أتساءل عن كيفية وجود الرأس في القاهرة، رغم أن المدينة تأسست بعد قرون من استشهاد الحُسَيْن، لجأتُ وقتها إلى الحل السهل، وهو أن ولع الشعب المصري بآل البيت جعله يقتنع بوجود الرأس رغم عدم منطقية ذلك زمنيًّا، خاصة بعد أن سمعت حكايات كثيرة عن أم الغلام التي يحمل أحد الشوارع المحيطة بالضريح اسمها. تعددت القصص وتنافست في غرابتها، فهناك من يقول إن أم الغلام هي الفارسية التي زوّجها الإمام علي للحسين في حضور الخليفة عمر بن الخطاب، وغيَّرت اسمها بعد دخول الإسلام إلى فاطمة، وأنجبت له الإمام علي زين العابدين، وقد اختلف المؤرخون حول اسمها الأصلي، لكن إحدى الحكايات الشعبية جعلته شاهيناز بنت يزدجرد. بينما روى آخرون أن أم الغلام سيدة مسيحية كانت تمرُّ بالقرب من موقع معركة كربلاء فرأت رأس الحسين فخبَّأته وقطعت رأس ابنها، ثم

فرَّت إلى مصرَ حيث دفنته، ولا نحتاج للإشارة إلى مواضع الخلل في القصة؛ لأن الرأس كان مُهمًّا لمن قتلوا الإمام؛ على الأقل لكي ينالوا جائزتهم من الخليفة الأموي، فليس منطقيًا أن يتركوه بعد قتله، ثم ينخدعوا فيحملوا رأس طفل بدلاً منه؟! حتى إذا افترضنا أنهم نسوا شكله فجأة فليس منطقيًا أن يفقدوا القدرة على التمييز بين رأسين يفصل بين عمري صاحبيهما سنوات طويلة. الغريب أن القصة السابقة وجدت قصة محلية تدور حول" التيمة" نفسها، ذكرها الروائي جمال الغيطاني في كتابه" قاهريات مملوكية"، وأشار إلى روايات متداولة تقول إن رأس الحسين طار من كربلاء إلى القاهرة طوال أربعين يومًا، ثم هبط في حجر بائعة فاكهة، تعرَّفت عليه واحتضنته، وكان يفوح منه العطر، وعندما جاء جند يزيد بن معاوية يبحثون عنه قطعت رأس ابنها وقدمته لهم! وقد ذكر الغيطاني في سياق حكيه أن القاهرة لم تكن قد بُنيت بعدُ، لكن بالتأكيد ليست هذه الجزئية هي الوحيدة التي تضرب صحة القصة في مقتل، فهي مليئة بالأمور غير المنطقية. ويبدو أن الخلل المنطقي في القصة السابقة دفع آخرين لمحاولة تصحيحها، فقالوا إن أم الغلام سيدة قبطية دخلت الإسلام، أخذت الرأس من مسجد الصالح طلائع وأخفته، عندما سمعت أن هناك من أتى

ليسرقه، وأخفته في بيتها، وعندما عرف اللصوص بأمرها اتجهوا إليها فذبحت ابنها وأعطتهم رأسه؟!

قصص تشبه الأساطير في فقدانها للمنطق، فكل تفاصيلها يمكن دحضُها ببساطة، لكنها تظل محتفظة بحضورها وسط التراث الشعبي الذي يعشق الخوارق. وبعيداً عن هذه الحكايات يظل رأس الحسين حائراً بين أكثر من مكان يزعم أنه يحتضنه، لكن القصص في هذه الأحوال تحاول التحلي بالمنطق.. المردود عليه في أحوال كثيرة!

يرى البعض أن الرأس مدفون في البقيع بالمدينة المنوَّرة التي انتقل إليها بعد استشهاد الحسين، فقام والي المدينة وقتها عمرو بن سعيد بن العاص بتكفينه ودفنه. وهناك من يقولون إنه دُفِنَ بدِمَشْقَ، بعد أن وصل إلى الخليفة الأموي، لكنهم يختلفون حول موضعه الذي تعددت احتمالاته بين أحد الحوائط القديمة، ودار الإمارة والمقبرة العامة للمسلمين، وداخل موقع اسمه باب الفراديس أُطلق عليه بعد ذلك" مسجد الرأس".

وفيما يتعلق بالقاهرة قال البعض إن السيدة زينب بنت علي نقلته إلى القاهرة ودفنته بها، لكن حتى رحلة السيدة زينب إلى مصر مُختلَف عليها، وهناك قول

آخر بأنه نُقِلَ من باب الفراديس إلى عسقلان بفلسطين، ثم اشتراه الفاطميون مقابل ثلاثين ألف قطعة ذهبية، ونقلوه إلى القاهرة خوفًا عليه من الصليبيين، لكن هذه القصة عادت بالحدث إلى زمن الخليفة الظافر بالله.

وهناك من قال إن أبا مسلم الخراساني عندما استولى على دِمَشْقَ نقل الرأس إلى مدينة مرو بفارس، ورأى آخرون أنه مدفون بالكوفة، واتفق عدد من علماء السنة والشيعة أن الرأس رُدَّ إلى كربلاء ودُفِن بجوار الجسد، ومن هؤلاء القزويني والبيروني وابن الجوزي.

نهاية الخلافة

رغم شموخه الخارجي فإنه يبدو بسيطًا من الداخل، يفتقد القدرة على الإبهار، ربما حدث ذلك نتيجة معاناته على مر العصور، ففي حِقَب متتابعة اختفى تماماً خلف البيوت التي جارت عليه، وفي عام ١٣٠٢م ضرب مصر زلزال كبير أدى إلى تصدع الكثير من الأبنية، ومنها المسجد الذي أعاد إعماره وقتها الأمير بكتمر الجوكندار، وفي عام ١٤٧٧م ارتفعت الأرض وأخفت جزءًا منه، رغم أنه يعلوها في بنائه الأساسي بنحو أربعة أمتار؛ لأنه من المساجد المُعلَّقة التي ترتفع فوق محلات يُسْتَخْدَمُ عائدُها في الإنفاق على المنشأة الدينية، وتولى الأمير يشبك بن مهدي الحفر حوله وكشف سلمه. ومع بدايات القرن العشرين كان وضعه

قد أصبح بالغ السوء، فاختفت الدكاكين تحت الأرض تماما، وأنشأ الأهالي غيرها، كما شيَّدوا منازل أخفت المسجد المُعلَّق، بعد أن تهدمت أجزاءٌ كبيرة منه، وخلال الأعوام من ١٩١١م حتى ١٩١٥م خضع لمشروع ترميم ضخم، وتمَّ نزعُ ملكية المساكن والمحال، وإعادة الأرض لمستواها الأصلي وإعادة بناء الواجهتين. لكن عوامل الزمن تركت عليه علامة يلحظها أي زائر، فقد اختفت مِئذنته الأصلية، وأعيد بناؤها لكن تمت إزالتها هي الأخرى عام ١٩٢٦م لخلل بها، وهو الآن بلا مِئذنة.

ويرصد مسجد الصالح طلائع نهاية الدولة الفاطمية التي كُتِبَتْ شهادةُ وفاتها بخلافة العاضد بالله، فقد تعرَّض وزيره القوي الصالح طلائع للقتل في دهليز القصر الفاطمي، ليتولى الوزارة بعده شاور السعدي الذي نصح الخليفة بحرق مدينة الفسطاط كي لا تقع في أيدي الصليبيين، فاستجاب له وظلت النيران مُشتعلة فيها نحو شهرين، ثم ارتاب العاضد في وزيره، وأرسل يستنجد بنور الدين حاكم دمشق، فبعث له أسد الدين شيركوه الذي اكتشف أن شاور كان جاسوساً للصليبيين. شنقه شيركوه وتولى الوزارة لكنه تُوُفِّيَ بعد أسابيعَ، وتولَّى المنصب صلاح الدين الأيوبي، لتبدأ قصة دولة جديدة، سنتجاوزها في هذا

الكتاب؛ لأن ما تبقى من منشآتها الدينية لا يُذكر، مقارنة بها سبقها وما جاء بعدها.

سباقُ المآذنِ المملوكيةِ

يبدو شارع المعز مثل ممر بين عالمين. الماضي الممتد إلى السماء يحتضن الحاضر الأكثر ارتباطاً بالأرض، وهديل الأحجار الشامخة يتراجع أمام صخب المارَّة. السيناريو نفسه يتكرر في شوارع أخرى مثل الدرب الأحمر وسوق السلاح والصليبة. تفاصيل لا يلحظها إلا القادم خصيصًا من أجل الاستمتاع بالتاريخ، أما السكان الأصليون أو العابرون المزمنون فلا يلتفتون إليها، لا يذكرون عنها إلا حكايات عابرة ومتقطعة، قد تخطىء في الأسماء وتخلط الوقائع، بينما يتحدث أحدهم بثقة وكأنه يُقدم معلومة موثوقة.

كثيراً ما تساءلتُ عن مباريات التشييد التي تنافس فيها السلاطين والأمراء، على إقامة عمائر دينية لا تتناسب مع ممارساتهم الدموية التي امتدت عبر تاريخ من المؤامرات، والتى لم تتوقف عند حد انقلاب الأمراء على السلاطين، بل تجاوزت الحدود بقتل الأخ لأخيه، وتسميم الأب لابنه، وانقلاب التلميذ على أستاذه؟! يفعل كل منهم جرائمه دفاعًا عن وجوده، ثم يبنى المساجد ويُقبل على عمل الخير، بينما يكون قبلها قد نهب أموال المواطنين بالضرائب والجباية؟! إنه التناقض الذي رصده أولج فولكف في كتابه" القاهرة.. مدينة ألف ليلة وليلة"، فكتب عن المماليك قائلا:" وبالرغم من تباين أصولهم، فإنهم اشتركوا

جميعًا في أمر واحد، هو تقلب الشخصية، فالضحكة الباسمة تتناوب مع الغضبة المتجهمة، والحماس يتناوب مع الفتور، وأحط الشرور تتواجد في نفس الوقت مع الروحانية الشفافة. فقد يقضي المملوك ليله في النهب، ثم يملؤه النهار بالندم فيوزع على الفقراء غنيمته، وقد يهم بالقتل فتراجعه نفسه بما ينتظره في العالم الآخر من جزاء. لقد اتسم السلاطين أنفسهم بهذا المزاج الْمُفْعَم بالتقلُّب، بل تمادوا فيه بدرجة وحشية".

قد يكون للحضور المتقطع للعالم الآخر دوره في تشييدهم المساجد، وربما تكون الرغبة في الخلود، ففضلًا عن أن معظمها يضمُّ أضرحةً يُفْتَرَضُ أن تحتضن جثامينهم بعد الوفاة، لكن الذكرى الطيبة قد تكون هدفًا في ذاتها، ويكفي أن بعض المؤرخين يتناسون الكثير من الخطايا للأمراء والسلاطين، مؤكدين أن مسجدًا شَيَّدَهُ أحدهم يكفيه؟! وبينما ظل البنَّاءُون العظام حاضرين في أذهان المواطنين، فقد غاب أمراء كثيرون أدُّوا أدوارًا بالغة الأهمية، لكنهم لم يتركوا وراءهم حجارة تسهم في تخليد أسمائهم، حتى لو كان الخلود قاصرا على أبناء مجتمع ضيق ممن يعيشون في محيط المسجد أو الجامع أو المدرسة.

الأبُ والجدُّ والحفيدُ

في منطقة بين القصرين، تُفْتَتَحُ قُسبَّةُ المنصور قلاوون وبقايا بيمارستانه من سلسلة الأبنية الضخمة. أنهى الجد مرحلة حكم أسرة الظاهر بيبرس التي لم يتميز فيها سوى مؤسسها، وخلفه اثنان من الحكام الضعفاء، وبعد ١١ عامًا وثلاثة شهور قضاها المنصور قلاوون في السلطنة مات ليخلفه ابنه الناصر محمد بن قلاوون، كان عمر الأخير ٩ سنوات؛ لهذا لم يكن غريباً أن يتم خلعه بعد أحد عشر شهراً، ليعيده الأمراء وهو في الثالثةَ عشرةَ من عمره، ورغم أنه استمر في الحكم عشر سنوات، فإنه ظل محاصرًا بنفوذ الأمراء المتزايد، حتى إنه طلب طعاماً من الطباخ ذات مرة، فلم تتم الاستجابة لطلبه، وقيل له إن التنفيذ مؤجل لحين وصول شخص اسمه كريم الدين كان يعمل كاتباً للأمير القوي بيبرس الجاشنكير أتابك العسكر، وهو منصب يشبه وزير الدفاع في عصرنا الحديث، ضاق السلطان الشاب من قلة حيلته، فخلع نفسه وتولى الحكم الأمير بيبرس، لكن سرعان ما انقلب عليه الأمراء والعامة، وعاد الناصر للحكم، ليستمر فيه حتى وفاته، بعد نحو ثلاثة وثلاثين عامًا، لتقترب فترة حكمه المتقطعة مجتمعة نحو ٤٤ سنة إلا بضعة شهور.

ويُعَدُّ الناصرُ بن قلاوون المؤسسَ الحقيقي لهذه النهضة المعمارية، خاصة بعد عودته للسلطنة في المرة الثالثة، فقد استقر بالحكم حتى مات، ولم تكن تلك النهضة على مستوى مدرسته المجاورة لقُبة أبيه فقط ولا المسجد الشهير الذي أنشأه بالقلعة، فقد نجح في نقل العدوى إلى مماليكه الذين تزايدت أعدادهم بشكل مُبالَغ فيه، وأدَّوا دوراً لا يُنسى فى مرحلة مُلتبسة من تاريخ الدولة المملوكية. بدأ هذا الدور بعد رحيله مباشرة عندما تلاعبوا بمصائرَ ثمانيةٍ من أبنائه تولَوا السلطنة من بعده، لدرجة أن أول ثلاثة منهم لم يكملوا مجتمعين عاماً واحداً في الحكم، فتولى المنصور سيف الدين لمدة ثلاثة شهور، ثم الأشرف كُجك خمسة شهور، ومكث الناصر أحمد في السلطنة شهرين و١٢ يومًا. وتفاوتت فترات حكم أربعة آخرين بين سنة وشهور، وثلاثة أعوام وشهور، ولم يخرج عن هذا السياق سوى السلطان حسن الذي تولى لمدة ثلاث سنوات وتسعة شهور ثم خلعه الأمراء، وعاد به آخرون بعد أكثر من ثلاثة أعوام فظل في السلطنة عشر سنوات ونصف، حتى الانقلاب عليه واختفاء جثته في ظروف غامضة. ووسط ظروف كهذه كان طبيعياً أن تكون المنشآت الأساسية الباقية

هي مدرسته الشهيرة بالقلعة، ومساجد ومدارس أنشأها عدد من الأمراء الذين استمر نفوذهم لفترات تزيد على مدد بقاء الحكام في السلطنة.



مسجد المنصور قلاوون

" مجموعةُ المنصورِ قلاوون"

للضخامة أيضًا رقتُها!

من الخارج تبدو مجموعة المنصور قلاوون° هائلة، تُحقق معادلة لا تتحقق كثيرًا، إنها" رقة الضخامة"، العنفوان المُلبَّد بجمال منحه القِدم جاذبية لا تُقاوَمُ. أقيمت على جزء من القصر الفاطمي الصغير، ويُقال إن أرضها كانت في الأصل قاعة كبيرة لست الملك أخت الحاكم بأمر الله، هاهو التاريخ المُتداخل يعاود حضوره، ومن رحل يظل مُطِلًّا بذكراه ولو بعد قرون! يرتبط المكان بحكايات كثيرة عن أسباب التشييد، فقد كان ميلاده نابعاً من رحم الظُلم. غضب الملك على المواطنين ذات مرة فأطلق أيدي الجنود فيهم، فأخذوا يقتلون العامة في مذبحة استمرت أياماً حتى شفع لهم بعض الأعيان، فتوقّف القتل وشعر السلطان بالندم بعد أن راح من راح. فأنشأ البيمارستان لعلاج الناس، وأيضًا وفاء لنذْر قديم، وبنى المدرسة لتعليمهم، والمدرسة في العمارة الإسلامية هي مسجد ضخم، لكنَّ دورَه لا يقتصر على إقامة الصلاة، بل يتسع لتدريس علوم الدين، ولم ينس السلطان نفسه؛ فأنشأ القبة الضخمة، كي تضمُّه تحتها بعد رحيله. وشارك في بناء هذه التُحفة المعمارية ثلاثمائة أسير، وتفرَّغ لها جميع

° شارع المعز

الصُنَّاع بعد منعهم من العمل في غيرها، أي أن المنصور قلاوون أراد أن يُطهِّر نفسه من الظلم فأقام مجموعته بالسخرة!

كان المنصور قلاوون واحداً من الأمراء الذين تصدَوا للمغول، مع سيف الدين قطز والظاهر بيبرس، وعندما تولى الأخير الحكم تزايد نفوذ قلاوون، وهو الأمر الذي جعل الظاهر بيبرس يشعر بالقلق؛ لأنه كان يرغب في أن يكون ابنه محمد بركة خان وريثاً له في الحكم، هنا لجأ السلطان لتزويج ولي عهده لابنة الأمير القوي قلاوون، وبالفعل تولَّى محمد الحكم وعمره نحو ١٨ عاماً، وكان وزيره الأمير بيليك راجح العقل؛ فساعد في استقرار الأمور، لكنه لم يلبث أن مات، فبدأ السلطان الشاب يطيش. قبض على أمراء بوشاية آخرين، وتآمر على البعض، ومنهم المنصور قلاوون فقرروا خلعه، وعرض الأمراء الحكم على قلاوون فرفض، وتمت تولية الابن الثاني لبيبرس، وحمل اسم الملك العادل سيف الدين سلامش، اسمه يوحي بأننا أمام حاكم قوي سوف يُثبِّت دعائم دولة والده، لكنَّ عمرَه كان أقلَّ من ثماني سنوات، وتولى قلاوون منصب أتابك العسكر، وصار يُخْطَبُ باسمه في المساجد مع الملك الطفل، كما كُتِبَ اسمُهما معًا على الدنانير والدراهم، وبعد خمسة شهور فقط انفرد المنصور بحكم مصر.

لماذا رفض قلاوون عرض الأمراء؟ وما الذي تغيَّر خلال خمسة شهور وجعل الحكم يحلو في عينيه فجأة؟ لم يكن المنصور عازفاً عن الحكم مثلما أوحى لمن حاولوا مبايعته، بل كان يرغب في التمهيد لنفسه، وتهيئة الأمور لكي يستقر بدون مؤامرات، ولو لبعض الوقت، وخلال الشهور الخمسة قبض على العديد من الأمراء وسجنهم، ثم خلع الملك وأرسله إلى الكرك بالأردن، مع أخيه خضر، وكان الكرك منفى الأمراء والملوك في تلك الفترة، والمنفى يُعَدُّ نهايةً سعيدة بدلا من القتل الذي كان مصير الكثيرين. وستظل هذه المدينة البعيدة عن قلب الحكم متواجدة لعقود طويلة، ليس فقط مع ابن قلاوون وبعض أحفاده، بل في عصور سلاطين آخرين.

من أعلى تُطِلُّ المِئذنة على الوافدين، تتفحصهم وتتابع نظراتِهم بأسى، وهي تتحول عنها بسرعة إلى الواجهة البديعة، بأعمدتها الرخامية وشبابيكها المُفَرَّغة، وشرفتها المُزَيَّنَة بالزخارف. واجهة لا يوجد لها شبيه في القاهرة التاريخية، وقد أضاف لها الناصر بن قلاوون سبيلاً وكُتَّابًا زادا من جاذبيتها. المِئذنة الأصلية تهدَّمَتْ بفعل زلزال عام ١٣٠٢م، فأعاد الابن الناصر بن قلاوون بناءها، لتكون حلقة الوصل بين عصرين لا تفصل بينهما فترة زمنية طويلة. بعد الفكاك

من أسر الواجهة يتجه الزائر إلى ممر طويل ذي ارتفاع شاهق. العالمون بالكنز المختبيء بالداخل لا ينشغلون بتأمل الممر، وسرعان ما يتجهون عَبْرَ مدخل إلى اليمين لزيارة القبة، وتصميمها الخارجى يُذَكِّر بتصميم قبة الصخرة، حافظت على جمالياتها رغم إعادة بنائها في بدايات القرن العشرين. في الداخل فراغ هائل يفصل بين الأرض والقبة التي تحتضن رفات ثلاثة من الحكام: الجد المنصور قلاوون، والأب الناصر بن قلاوون، والحفيد الصالح أبو الفدا عماد الدين إسماعيل.

مَنْ الحفيدُ؟

كان الملك الصالح هو رابع ابن للناصر محمد بن قلاوون يتولى الحكم، جاء ذلك بعد رحيل أخيه الناصر أحمد إلى الكرك ليقيم بها، ولم يستجب لدعوة الأمراء له بالعودة، فخلعوه بعد أن قضى في السلطنة شهرين واثني عشرَ يومًا، واتفقوا على تولية الصالح أبو الفدا، وكما جرت العادة ردَّ الجميل للأمير آق سنقر الذي كان له دورٌ بارزٌ في اختياره للحكم، ومنحه منصب نائب السلطنة، وبعدها بشهور ألقى القبض على آق سنقر وقيَّده وأرسله إلى سجن الإسكندرية!

في فترة لاحقة أرسل الصالح عدة حملات لحصار أخيه المعزول في الكرك، لكن الناصر أحمد صمد لمدة ثلاث سنوات؛ أي معظم فترة حكم السلطان الصالح، ثم استسلم بعد أن أرسل له الأمراء الأمان، لكن الملك لم يحفظ العهد، فطلب من أحد الأمراء أن يتجه إلى الكرك ويقتل أخاه، وبالفعل قطع رأسه ووضعها في علبة وقدمها هدية للسلطان في القاهرة! ويقال إن السلطان عندما رأى رأس أخيه أصابته رجفة، استمرت تعتريه حتى مات بعدها بفترة قصيرة، لتظهر التناقضات من جديد، فابن إياس يعتبر السلطان من خيار أبناء الناصر بن قلاوون، حيث كان عادلاً محباً للناس، وربما يكون القتل في تلك الفترة من ضروريات الحكم، وسط مؤامرات ودسائس لا تنتهي، ومن لا "يتغدى" بعدوّه سيكون هو طعام عشائه! المهم أن الصالح كان مُغرماً بالجواري السود، حتى إنه وقع في هوى جارية سوداء اسمها اتفاق، حررها بعد أن أنجبت له ولدًا، واتفق اثنان من إخوته الذين خلفوه على حبها، فتزوجها كل منهما أثناء حكمه!

تحت القبة تنشغل الأعين عن الموت وحكاياته، بتألق أعمدة الجرانيت والسقف المُذَهَّب، ومحرابها الأكبر والأكثر فخامة في مصر، كما أن البعض يعتبرونها ثانيَ

أجمل ضريح في العالم بعد تاج محل بالهند. وبعد الخروج من القبة يمكن للزائر أن يتجه إلى المدرسة، التي لم يبق منها سوى الجانب الشرقي، وهو فريد في أسلوب بنائه، فارتفاعه شاهق كالعادة، وسقفه محمول على أعمدة رخامية، ويضم منبرًا بسيطاً ليس الأصلي، بينما ضاعت معالم الجانب الغربي.



مدرسة الناصر محمد بن قلاوون

" مدرسةُ الناصرِ بنِ قلاوون"

إنتاجٌ مشتركٌ لحاكمينَ مخلوعينَ!

لم تكن بدايات الناصر بن قلاوون تُنْبِئُ بأنه سيضرب رقماً قياسياً، ليس فقط في زمن تميز بقصف أعمار حكامه مُبكراً، بل على مستوى المقارنة بحكام آخرين سبقوه وجاءوا بعده عَبْرَ عدة قرون. بعد وفاة والده المنصور قلاوون، تولى ابنه الأشرف خليل الحكم، لكنه تعرَّض للقتل، ونصَّب الأمراء أخاه الناصر محمد بن قلاوون حكم مصر للمرة الأولى وعمره تسع سنوات حسبما ذكر الكثيرون، لكن المقريزي قال إن عمره كان سبع سنين، عموما لم يُكمل السلطان الطفل العام وتمَّ خلعُه، ليتولى اثنان من الحكام لا ينتميان لبيت قلاوون، هما العادل كَتْبُغا، ثم السلطان لاجين، صاحب النذْر الشهير بإعادة إعمار مسجد أحمد بن طولون. كان لاجين قد شارك في قتل الأشرف خليل، وعندما تولى الناصر بن قلاوون السلطنة لأول مرة، أقنعه كَتْبُغا بالعفو عن قاتل أخيه، ويمكن القول إن كَتْبُغا هو الذي أخذ القرار فعليًا، فالطفل المُتَسَلْطَن لا حول له ولا قوة. وَفْقًا للسيناريوهات المعروفة في تلك الفترة. ويُمكن افتراضُ أن كَتْبُغا كان الرجل الخفي في المؤامرة على الأشرف خليل، ولا يوجد ما يشير إلى ذلك في المصادر التاريخية، لكنه ليس احتمالاً مُستبعدًا، خاصة أنه كان المستفيد، فقد سعى كتْبُغا

لتولية طفل لا يملك من مقاليد الأمور شيئاً، ثم خلعه ليتولى الحكم بدلاً منه، استخدم الأمير القوي الخطة نفسها التي اتبعها المنصور قلاوون مع ابن الظاهر بيبرس، وخلال فترة حكمه بدأ كَتْبُغا ترقية لاجين، لكن سرعان ما انقلب الأخير عليه وخلعه!

تعرَّض السلطان لاجين للقتل، وعاد الأمراء بالناصر، بعد نحو أربع سنوات، فاتخذ قراراً غير مُعتاد، حيث جعل السلطان المخلوع كَتْبُغا نائباً لمملكة حماة. نظراً لإعزازه له، من هنا تحديداً تبدأ الجزئية التي تهمنا، حيث كان كَتْبُغا خلال سلطنته قد بدأ تأسيس مدرسة باسمه بجوار مجموعة المنصور قلاوون، وقطع شوطاً لا يُسْتَهان به في تشييدها، لكن العمل توقف بها بعد خلعه، وعندما عاد الناصر للحكم استكمل بناءها ونُسِبَتْ إليه.

ما تبقى من المدرسة بشارع المعز، يشير إلى أن المبنى الأصلي كان بالغ الجمال، تحتفظ واجهتها الحجرية بالكثير من تفاصيلها القديمة، ويُعْتَبَرُ بابُها ذو الطراز القوطي غريبًا على العمارة الإسلامية، فقد جيء به من عكا حيث كان يخص إحدى كنائسها. ورغم عظمة البناء فإنه يتضاءل مقارنة بمنشأة المنصور قلاوون المجاورة، لكنه يظل حاضرًا كأحد أهم منشآت الناصر الذي توسع في

حركة التشييد، فبنى مسجداً بالقلعة وثلاثة قصور من بينها الأبلق، فضلًا عن عشرات المنشآت المهمة التي اندثر الكثير منها، حتى إن ابن إياس يقول عنه: "تزايدت في أيامه بالديار المصرية والبلاد الشامية، من العمائر مقدار النصف، من جوامع وخوانق وقناطر وجسور وخُلْجان، وغير ذلك من العمائر بالقلعة وغيرها". وذكر المقريزي أن الناصر كان مولعاً بالعمارة، حتى إنه أنشأ لها ديواناً يشبه وزارة الإسكان في عصرنا، ولم تكن المصروفات اليومية لهذا الديوان تقلُّ عن اثني عشر ألفَ درهمٍ.

أنثى أبو الهول!

في بدايات كتابه" بدائع الزهور" تحدث ابن إياس عن عجائب مصرَ، فنقل عن الجاحظ قوله:" إن عجائب الدنيا ثلاثون، من بينها عشرون في مصر وحدها"، وتحدث في هذا السياق عن" أبو الهول"، ثم ذكر أنه كان له شبيه عند قصر الشمع بمصرَ القديمةِ، لكنه على هيئة امرأة، وكان الناس يسمونه: "سرية أبو الهول"، والسرية في اللغة هي الجارية، وأشار إلى أن أبو الهول كان طلسماً للرمال؛ أي ما يُشبه" العمل السحري"، الذي يمنع الرمل من أن يطغى على الأراضي الطينية، كي لا تفسد صلاحيتها للزراعة، بينما كان تمثال أبو الهول الأنثوي طلسماً للمياه، يمنعها من اجتياح أرض مصر وإغراقها!

لم تقفز الفِقْرة السابقة خطأ بين صفحات هذا الكتاب، فرغم عدم وجود علاقة لها بالآثار الإسلامية، فإن عبارة وردت على لسان ابن إياس جعلت هذه الفِقْرة تحل ضيفة هنا، فقد تحدث عن تكسير" صنم" أنثى أبو الهول، وقال: " كسره الناصر محمد بن قلاوون وعمل منه قواعد وأعتابًا للجامع الجديد لمَّا بناه". لا يمكن تأكيد صحة وجود هذا التمثال، خاصة أن ما ورد في كتب المؤرخين عن مصر القديمة والفرعونية أصبح مجرد حكايات شعبية لا أساس لها من الصحة، وهم معذورون في ذلك؛ لأن حقائق تاريخنا لم تتضح إلا بعدها بقرون، وتظل المشكلة فيمن ينقلون عنها في عصرنا الحديث باعتبارها معلومات مؤكدة، رغم ما بها من أخطاء فادحة، ويكفي أن أضرب مثالًا بما ذكره ابن إياس نفسه، نقلا عن ابن عبد الحكم الذي قال إن من ملك مصر من الفراعنة خمسة، هم: طوطيس ابن ماليا(فرعون إبراهيم)، الريان ابن الوليد(فرعون يوسف)، الوليد بن مُصعب(فرعون موسى)، ودارم ابن الريان، بينما نسي اسم الخامس؟! ثم بدأ يسرد أهم الأحداث التي وقعت في عصورهم.

لكن سذاجة التصور السابق لا تنفي حقيقة مؤكدة، هي أن الكثير من المنشآت الإسلامية تضمُّ مُفرداتٍ معماريةً فرعونيةً، فقد كانت الآثار المصرية مصدراً

أساساً للحجارة والأعمدة، للسلاطين والأمراء الراغبين في تشييد مساجدهم ومبانيهم، وأذكر أنني كنت في زيارة لسور القاهرة الشرقي عقب اكتشافه قبل سنوات، بصحبة عالم الآثار الراحل الدكتور جاب الله علي جاب الله أمين عام المجلس الأعلى للآثار، والذي أخذ ينبهني إلى كتابات هيروغليفية متناثرة في عدة مواضع بالسور الإسلامي.

الخليفةُ نسيَ نفسَهُ

ذات يوم تجمع أعيان البلاد لافتتاح مدرسة الناصر محمد بن قلاوون، جرت العادة على ذلك حتى صار الطقس شبه مكرر، السلطان والخليفة وقضاة المذاهب الأربعة والأمراء يجتمعون فى الصحن والأروقة، في مشهد عادة ما يغيب عنه البعض في افتتاح آخر، لا يُمكن التكهنُ بمن سيلفظه الواقع، فقد يكون أميراً مغضوباً عليه، أو سلطاناً تعرَّض للخلع. وربما يكون الخليفة الذي تحول إلى مجرد مظهر فلكوري، لكنه أحياناً ينسى نفسه، مثلما حدث مع الخليفة العباسي المُستكفي بالله، فقد شكا له أحد الأشخاص من السلطان الناصر، فكتب الخليفة على مذكرة الدعوى" ليحضر أو يُوكل"، كان يريد إعمال العدل ولو في مواجهة السلطان، فطلب حضوره أو توكيل من يترافع عنه، مما جعل الناصر بن قلاوون يشعر بالضيق، لكنه لم يأخذ ردَّ فعل سريع، بعدها بفترة

فرض السلطان الإقامة الجبرية على الخليفة نحو خمسة شهور، ثم عفا عنه بعد شفاعة البعض له، لكن غضب الحُكام لا ينتهي بهذه الصورة، فبعد شهور صدر قرار نفي المستكفي بالله إلى قوص مع أبنائه، فأقام بها إلى أن مات بعد ثلاثة أعوام ونصف، وخلال هذه الفترة قرر توريث الخلافة لابنه، وفعل ذلك بشهادة قاضي قوص و٤٠ شاهد عدل، لكن السلطان لم يعترف بهذا التوريث، وجمع القضاة الأربعة ليختار خليفة غير الابن، وعلى غير المتوقع أصر القضاة على الخليفة المُختار، لكن السلطان لم يقم بتنصيبه، وظلت مصر بلا خليفة طوال أربعة شهور، دون أن يشعر الناس أن هناك ما ينقصهم، وفجأة قام الناصر بمبايعة إبراهيم بن شقيق المستكفي بالخلافة على حين غفلة، لكن العامة كرهوه لطمعه وقذارة نفسه، وعندما مات الناصر سارع أول من تولى الحكم من أبنائه بخلع إبراهيم وإعادة أحمد بن المستكفي، وتلقب بالحاكم بأمر الله.

عند حديث المؤرخين عن الناصر تتكرر عبارة" تغيّر خاطر السلطان على....."، ومكان النقاط يتبدل الاسم، وهي عبارة معتادة في فترة الحكم المملوكي، لكن طول فترة حكم الناصر يزيد من تكرارها، وتغيّر الخواطر ينتهي بالعزل أو النفي أو القتل، دون أن تشفع القرابة أو الود القديم، أو حتى الانتهاء

من فريضة مهمة مثل الحج، فعندما قرر السلطان أن يحج للمرة الثالثة، اصطحب معه اثنين وسبعين أميراً، على رأسهم زوج أخته بكتمر الساقي أتابك العسكر، وابنه أحمد. وفي طريق العودة جاءت الأخبار بوفاة الأخيرين، ويُقال إن السلطان علم بأن صهره ينوي الانقلاب عليه، ونظراً لقوته لم يكن ليستطيعَ القبض عليه، فأرسل من دسَّ له ولابنه السُّم. وكان بكتمر يتصدى للسلطان إذا رأى منه ظلماً في حق الناس، فلا يستطيع مخالفة رأيه؛ لأنه يخشاه، وبلغت قوة وزير الدفاع درجة لا يُسْتَهانُ بها، حتى إن الناصر لم يكن ليستطيعَ أخذ قرار إلا بعد مشورته، مما جعله يضيق به ومن نفوذه، لينتهي الأمر بقتله، ويأتي السلطان بأتابكي جديد هو الأمير قوصون، ويزوِّجه إحدى بناته، ليضع بذلك بذرة طاغية جديد، سرعان ما فاق نفوذه نفوذ من سبقه، وسوف يكون الحديث عنه أكثر تفصيلاً في سياق مسجده؟!

بعيداً عن السياسة وألاعيبها، شهدت فترة حكم الناصر ظهور نموذج مُبكر لشخصيتي ريَّا وسكينة، حيث ظهرت بالقاهرة امرأة أطلق الناس عليها "الخنَّاقة"، كانت تستدرج النساء والأطفال وتخنقهم لتسرق ثيابهم، فأمر

السلطان والي القاهرة بسرعة ضبطها، وهو ما تمَّ بالفعل وشُنقت على باب زويلة!



صحن جامع السلطان حسن

" السلطان حسن"

مسجدٌ يهزمُ إيوانَ كسرى

يُطِلُّ إلى أعلى متحدياً القلعة[٦]. ورغم المسافة الفاصلة بين الكيانين أفقياً ورأسياً، فإنهما يشكِّلان معًا تناغم التضاد! قبل أن ينضم إلى المشهد في عصر تالٍ مسجد الرفاعي، وتكتمل الرؤية بتكوينات معمارية هي الأكثر ضخامة وجاذبية. لم تكن فترة تولي السلطان حسن السلطنة طويلة، فعبْر مرحلتين تولى فيهما الحكم، مرت فترة عزل مؤقت استمرت ثلاث سنوات وثلاثة شهور، ليبلغ مجموع فترة سلطنته نحو أربع عشرة سنة، ورغم قصر المدة فإنه يبدو أكثر حظاً بعد سبعة أشقاء له من أبناء الناصر بن قلاوون؛ فقد كانت أطول فترة قضاها أحدهم في الحكم ٣ سنوات ونصف، وضرب أحدهم رقماً قياسياً بخلعه بعد شهرين و١٢ يوماً فقط!

لم يكن ثمة إنجاز حقيقي في تلك المرحلة المضطربة، حتى السلطان حسن فقد حياته في نهاية حكمه ولم يُعْثَرْ على جثته، لكنه كان الأسعد حظًا إذا اعتبرنا أن الذكرى الخالدة نهاية سعيدة! فقد شيَّد مدرسته التي تجذب الأنظار إليها حتى الآن، لدرجة وصفها بأنها تشبه الأهرامات بين الآثار الإسلامية. وأكد

---

[٦] ميدان القلعة

المتخصصون أن إيوان قِبْلته تفوَّق على إيوان كسرى.(الإيوان مصطلح معماري، يشير إلى مكان له سقف ينفتح ضلعه الرابع على صحن المسجد، ويُشترط أن تكون أرضيته أعلى من تلك التي تخص الصحن).

في عام ١٣٥٦م بدأ السلطان حسن تشييد مدرسته، كان عمره وقتها اثنين وعشرين عاماً، يبدو السن صغيراً وَفْقًا لمقاييسنا الحالية، لكنه في تلك الفترة كان في الثلث الأخير من عمره! حيث سيتعرض للقتل بعدها بنحو خمس سنوات.

اختار السلطان حسن موقعاً يضمُّ قصرًا لأمير اسمه يلبغا اليحياوي، كان مُقَرَّبًا من والده الناصر محمد بن قلاوون ومحببًا لقلبه، ولم يكتف بترقيته في المناصب، بل أمر ببناء قصر له، وآخر يقابله للطنبغا المارداني، ويذكر المقريزي أن بناء القصرين كان على حساب السلطان شخصيًا، وبرر ذلك بعبارة قد تبدو غامضة:" لتزايد رغبته فيهما، وعظيم محبته لهما، حتى يكونا تجاهه وينظر إليهما من قلعة الجبل"! عموماً انتهت حياة اليحياوي بالقتل في عهد أحد أبناء الناصر، وجاء الابن الآخر ليقضي على قصره ويبني مسجده عليها، ويتحوَّل اسم الأمير الراحل لمجرد سطور في كتب التاريخ، لا يعرف الكثيرون حاليًّا شيئاً عنه، رغم أنه كان واحداً من المؤثرين في تولية السلاطين وخلعهم!

كثيرون كتبوا عن مسجد السلطان حسن في عصور متباعدة، حتى إن العبارات الملائمة لوصفه لم تعد تأتي بجديد، فعندما دخل السلطان سليم العثماني القاهرة بعد إسقاط دولة المماليك، رأى المسجد فقال عبارة تحتمل التأويلات: "هذا حصار عظيم"! وهووصف بليغ يُعبِّر عن حالة سنتطرق إليها بعد قليل.

المقريزي نفسه وصف البناء قائلا:" فلا يُعْرَفُ في بلاد الإسلام معبدٌ من معابد المسلمين يحاكي هذا الجامع وقبته التي لم يُبْنَ بديار مصرَ والشامِ والعراقِ والمغربِ واليمنِ مثلها". واعتبره ابن تغري بردي من عجائب الدنيا، وامتدَّ الإعجاب إلى الأجانب، فكتب الرحالة الإيطالي بيترو دي لافاليه عام ١٦١٦: "جامع لم أر أجمل منه منظراً، ولا أبدع منه شكلاً، وأحسن ما راقني منه قبته وشكلها الغريب، التي لم أشاهد مثلها، فإنك بينما تراها ضيقة من الأسفل، تتسع في عينيك كلما تعلو ثم تأخذ في الضيق على هيئة بيضة الدجاج".

حرص السلطان على أن تكون القبة بالغة الفخامة، لكي تضمُّ جثمانه بعد رحيله، فأبدع المهندس في تشييدها وزخرفتها، بل إنه خرج عن العرف المُتَّبَع فيما سبقه من المساجد، فوضع القبة أمام محراب المنبر، وفصل بينهما بجدار ضخم، لم يسبقه في ذلك سوى المشهد الحسيني، بينما كانت قبة الضريح في كل

المساجد السابقة عليه بعيدة عن جدار القبلة، مراعاة لعدم جواز الصلاة أمام ضريح. لكن ما خطط له السلطان لم يكتمل. فقد حاول الإطاحة بأمير يُدعى يلبغا لكنه فشل، هنا انقلب الأمير القوي عليه، وفر السلطان الشاب، ليتمَّ إلقاء القبض عليه سريعاً وتنتهي حياته نهاية غامضة، فلا تظهر له جثة. هناك من قال إن الأمير يلبغا الذي انتصر خنق أستاذه وألقى جثته في النيل، وذكر آخرون أنه حبسه وتفنَّن في عقابه حتى مات من التعذيب فدفنه تحت مسطبة في بيته، وقيل أيضا إنه تمَّ دفنُه في أكوام تراب بمصرَ القديمةِ، ليظل موقع دفنه مجهولاً، وتصبح القبة الفخمة من نصيب جثمان ابنه الشهاب أحمد.

كالعادة يُعْتَبَرُ المرُّ الواصل من الباب إلى الصحن فرصة لاستحضار الماضي، فالسلطان الذي غدر به أمير، سبق أن غدر بمن كان له فضل عليه، حدث ذلك عند توليته في المرة الأولى؛ حين كافأ من انقلبوا على أخيه المظفر حاجي وقتلوه، ومنهم الأميران بيبغا أروس ومنجك اليوسفي، وكان بيبغا هو من قام بخنق المظفر حاجي بيده. وبعد نحو ثلاث سنوات أعلن السلطان الصبي أنه أصبح راشداً، وكان أول قراراته القبض على الأميرين مع غيرهما، وإرسال الجميع إلى

سجن الإسكندرية، وهو ما أطلق شرارة الانقلاب عليه، ثم الإطاحة به من سلطنته الأولى.

في الصحن تتسع الرؤية وتضيق العبارة. الأروقة الأربعة تنتصب شامخة، ومن أعلى تُطِلُّ المِئذنتان الباقيتان، ربما تشعران بالحنين لزمن كان يحفظ للمآذن قدْرَها قبل أن تأتي مُكبِّرات الصوت لتحيلها إلى التقاعد، ولا يبقى منها سوى الجمال القديم الذي أصبح بعيداً عن اهتمام المارة في الشوارع المحيطة. شغلتهم هموم الحياة اليومية عن النظر لأعلى، فَخَطَوا مسرعين نحو أشغالهم التي لا تتيح لهم وقتاً للإحساس بالجمال! عندما شرع السلطان حسن في البناء، كان يخطط لتشييد أربع مآذن، لكنه لم يبن سوى ثلاث، بعدها بسنوات سقطت تلك الواقفة على الباب، فقتلت نحو ثلاثمائة شخص، من بينهم أطفال كانوا في السبيل، وكبار كانوا في القبو أو يمرون بالطريق، واعتبر الناس أن الحادث نذير شؤم وتنبؤُوا بقرب زوال حكم السلطان حسن، وهو ما تحقق بعدها بفترة قصيرة. القبة نفسها سقطت عام ١٦٦١، وتمَّ تجديدُها بعد عشر سنوات، لكن الأصلية كانت أعظم ارتفاعاً.

الوَقايةُ خيرٌ من الدفاع!!

عندما يتحول العنف إلى أسلوب حياة فإنه يمتدُّ لكل الأمور بالتأكيد؛ لهذا تمَّ استخدامُ المساجد نفسها كبؤر لتصدير العنف، لا على مستوى نشر الفكر المتطرف كما قد يتبادر إلى الأذهان، بل بتحويلها إلى حصون حربية تحتمي بها الأطراف المتصارعة، وتستخدمها كمنصات لإطلاق القذائف، ساعدت في ذلك ضخامتها التي تجعلها أشبه بالقلاع، وكانت المنصة الأكثر استخداماً هي مسجد السلطان حسن الذى يقف في الميدان الواسع متحدياً بشموخه مقر الحكم في القلعة! لم تكن المواجهات بين سُلطتين سياسية ودينية، مثلما توحي طبيعة الكيانين المعماريين، فعند المعارك كان الجميع يتناسَوْن الطبيعة الدينية للمسجد، حيث يسارع المتمردون بالسيطرة عليه، والصعود إلى أعلاه وقصف القلعة التى تردُّ بقصف مضاد، مما أصاب" السلطان حسن" في أحوال عديدة بالكثير من الأضرار. ذكر حسن عبد الوهَّاب وقائع عديدة منها، ففي عام ١٣٨٩م نصب البعض أعلاه نموذجًا بُدائيًّا من المدافع يُسمى" مكحلة"، وقصفوا أحد أبواب القلعة. كان ذلك بعد نصف قرن فقط من إنشائه، ولما تكررت هذه الوقائع أمر السلطان برقوق بهدم السلم المُوصِّل إلى سطحه وغلق بابه الرئيسي. وفى عام ١٤٢٢م أُعيد بناءُ السلم واستئناف الأذان بمئذنتيه،

وفتح مدخله بعد تركيب باب جديد بدلاً من القديم الذي أخذه "المؤيد شيخ" لمسجده، لم يستمر الأمر كثيراً، فقد عاد الأمراء لمهاجمة القلعة منه، مما دعا السلطان قجمق إلى هدم سلالم المآذن. ولم يذكر عبد الوهاب تفاصيل الفتنة الأخيرة التي عُرِفَتْ تاريخيًا باسم فتنة الأتابكي قرقماس، فقد حاول الرجل الانقلاب على السلطان، لكن الأخير أحبط مؤامرته، ولم يجد قرقماس أمامه سوى احتلال المسجد الضخم، وتركيب الأسلحة النارية عليه، ودارت المعارك حتى أصيب قرقماس فتفرق أتباعه، وبعد انتصاره أمر السلطان بعقد مجلس حضره القضاة ومشايخ العلم، ودار الحديث حول سلالم مِئذنتي "السلطان حسن"، وما يتسبب فيه استخدامها من تهديدات للقلعة، فحكم القاضي المالكي شمس الدين محمد البساطي بهدم السلالم، وعلَّق ابن إياس في كتابه بدائع الزهور قائلا: "وعُدَّ ذلك من النوادر". وفي عام ١٤٩٧م تمَّ استخدامُ المسجد من جديد لضرب القلعة، فردَّت السلطة القصف، واستخدمت" مكحلة" اسمها" المجنونة" فأصابت الجدران وقتلت قذائفها ثلاثة من المماليك، وتعرَّضت السجاجيد والقناديل والرخام للنهب، وبعدها بشهور تمَّ إصلاحُ ما تَلَفَ، وأُقيمت الخطبةُ بالمسجد بعد أن توقفت عشرة شهور.

جوامعُ .. ومدافعُ!

ما سبق مجرد نماذج لوقائع تكررت كثيرًا، لكنها في إحدى المرات تجاوزت حدود "السلطان حسن"؛ ففي واقعة شبه مجهولة لم يذكرها حسن عبد الوهَّاب في كتابه" تاريخ المساجد الأثرية"، رغم أنها واحدة من أكبر الفتن بين طائفتي المماليك المتنازعين: القاسميين والفقاريين، وكانت كل منهما مسيطرة على إحدى وحدات الحامية العثمانية الرئيسية، حيث سيطر القاسميون على أوجاق(وحدة) العُزْبان، بينما سيطر الفقاريون على أوجاق الإنكشارية، وهما وحدتان كانتا تضمان جنود المشاة، واستمر الصراع بينهما على السلطة والمصالح الاقتصادية، إلى أن تفجر فيما يشبه الحرب الأهلية عام ١٧١١م. تصلح تفاصيل هذه المعركة أن تكون موضوعاً لكتاب، لكني أختار هنا ما يمضي في سياق هذه السطور، وبعيداً عن أسماء الأمراء الذين قادوا المجموعتين، أختار اثنين فقط من باب التبسيط، هما محمد بك الكبير ومحمد بك الصغير؟! فعندما احتدمت الأزمة استعان الإنكشارية بالأول وكان حاكم جرجا، أما الثاني فكان أحد أمراء العُربان.

عند وصوله للقاهرة، أرسل "الكبير" إلى أحد قوَّاد فريقه يطلب منه الاستيلاء على مسجد السلطان حسن، ووضع بعض القوات فيه، لكن معسكر العُزْبان

المضاد أمسك برسوله وعلم بمضمون الرسالة، فسارع "الصغير" واحتله بواسطة ثلاثمائة رجل، ليصبح موقعاً أساسياً لوحدته، هنا نزل محمد الكبير بجنوده إلى شارع الصليبية وبدأ حصار الأخيرين، لتبدأ منافسة بالغة الغرابة، هدفها هو احتلال المساجد، لا في محيط القلعة فقط، بل امتدَّت إلى أحياء بعيدة نسبياً. فقد استهدف الإنكشارية المساجد الموجودة في الدرب الأحمر وباب زويلة، لكن العزْبان علموا بالخطة فسارعوا بالاستيلاء على مسجدي الجاي اليوسفي والمارداني، وأهملوا مسجد سودون الذي كان يقع بينهما فاحتله الإنكشارية، مع مسجد قجماس الإسحاقي بالدرب الأحمر، وإسكندر بباب الخلق، والمؤيد شيخ بباب زويلة(وقد سبق أن كان المسجد الأخير محوراً لمعركة أخرى في عام ١٦٦٥م، أفقدته الكثير من سماته المعمارية الأصلية إلى الأبد، وسيرد ذكرها عند الحديث عنه).

ومع استمرار المعركة استعاد العزْبان مسجدي سودون وقجماس، وسيطروا بعدها على منطقة باب زويلة. لا تعنيني هنا نتائج المعركة أو تداعياتها السياسية اللاحقة، فالأهم في هذا السياق هو أنها شهدت ذروة عمليات تحويل الجوامع إلى منصات للمدافع، وبعد أن كانت تركز في الوقائع السابقة على السلطان

حسن، فإنها في أحداث ١٧١١م انتقلت إلى حافَة الجنون، ليصبح احتلال المساجد جزءًا أساسيًا من استراتيجية الصراع الدائر، الذي لم يقتصر على المماليك المتصارعين، بل امتدَّ تأثيره إلى العامة والمشايخ، فانحاز كل منهم إلى جانب، واستغرقوا في تشجيعه وكأنهم يتعصبون لفريق كرة قدم في عصرنا الحالي!!



مسجد قوصون

" قوصون"

البُنيانُ يدفعُ ثمنَ الطغيانِ!

ذات يوم لم يكن في مقدرة أحد أن يتجرأ على جدرانه، فقد كان الأمراء يضعون قوة مؤسسه فى حسبانهم، خاصة مع سطوته التي تنامت حتى أصبح الحاكم غير المتوج لمصرَ، لكن الطير الذي علا وارتفع، لم يلبث أن هوى بعد خمسة شهور فقط من النفوذ غير المحدود، فتعرض مسجده للعبث، مثلما حدث مع بقية ممتلكاته عقب ثورة مفاجئة عليه. وتجاوزت جرأة العامة حدودها في عصرنا الحالي، بمبانٍ أخفت بعض جدرانه، ولم يسلم اسمه منها، فقد تحول المسجد من" قوصون[٧]" إلى" قيسون" لا على الألسنة فقط، بل أيضا على لافتات لجنة الزكاة الملحقة به!

لم يكن الفتى يتوقع أن يتغير مسار حياته إلى النقيض بمجرد وصوله إلى مصرَ عام ١٣٢٠م، فقد جاءها من إحدى قرى بخارى ضمن مماليك خوند ابنة القان أزبك، والتي تزوجها الناصر محمد بن قلاوون. رآه السلطان فأعجبه واشتراه بثمانية آلاف درهم. أصبح من المُقرَّبين له، ورقَّاه في المناصب، وأرسل فأحضر

---

[٧] شارع محمد على

إخوته من بلاده، وزوَّجه الناصر ابنته وتزوج أخته. وكان يمكن لقوصون أن يكتفي بما وصل إليه، لكن سقف أحلامه كان بلا نهاية.

بدأ الأمير قوصون بناء مسجده في شبابه، في موقع منزل الأمير جمال الدين قتَّال السباع الموصلي، فقد هدمه قوصون ليقيم الجامع الذي اكتمل بناؤه عام ١٣٣٠م. لا أحد يعرف بالتحديد تصميمه الأصلى، فقد تمَّ استهداف المسجد ضمن منشآت الأمير، في أعقاب الثورة عليه، وسقط النصف الأعلى لإحدى مِئذنتيه عام ١٨٠١ فهدم جانباً من المسجد، ورجَّح الجبرتي أن يكون سقوطه نتيجة استهداف الفرنسيين للمسجد بالبارود، ثم جاء إنشاء شارع محمد علي ليقتطع جزءًا آخرَ من الجامع كان يضم المِئذنة الثانية، وهكذا أصبح ما تبقَّى منه بلا مآذن.

شهد عصر تشييد المسجد صراعاً بين أمراء المماليك، وبرز فيه الفرسان الثلاثة الذين تساقطوا تباعاً في غضون سنوات قليلة لتبقى مساجدهم شاهدة على تاريخ من النزاع الدموي. أطاح قوصون بالأمير بشتاك، وشارك صرغتمش بدرجة ما في الإطاحة بقوصون، ولم تمض سنوات قليلة حتى كان السلطان حسن قد أنهى مسيرة صرغتمش، خلال نزاع آخر!

عندما شعر السلطان قلاوون بقرب وفاته- جمع بين أميريه المُقرَّبين، قوصون وبشتاك، وحاول الصلح بينهما لينهي تاريخًا من الخلافات، ويحسم ولاية العهد، وتمَّ ذلك بشكل ظاهري، وبمجرد وفاته تولى المنصور سيف الدين. لم يكن أكبر الأبناء لكنها إرادة الأب، عُمْرُ السلطان الجديد يبدو مثالياً؛ فهو في حدود العشرين عاماً! بمقاييسنا الحالية سنعامله كطفل، لكنه يبدو ناضجاً مقارنة بسلاطين تمَّ تنصيبهم وعمرهم بضعة أعوام أو حتى شهور! وبالفعل خطَّط السلطان الشاب للقبض على قوصون، الذي أسرع بمباغتته والانقلاب عليه، وأرسله منفيًا إلى قوص مع أخوين له هما يوسف ورمضان، وقام بتنصيب أخيه الأشرف كُجك، ولم يكتف قوصون بذلك، بل أرسل إلى حاكم قوص يطلب منه قتل السلطان المخلوع كي لا يُفكر في العودة إلى الحكم، وبالفعل قام بخنقه وقطع رأسه وإرساله إلى الوزير القوي، الذي كان أول من بدأ قتل أبناء أستاذه الناصر بن قلاوون.

كان عمر السلطان الجديد الأشرف كجك خمس أو سبع سنوات، فقد اختلفت الكتب على السن، وكان أول قرار أخذه الحاكم الطفل هو الإنعام على قوصون بمنصب نائب السلطنة، بالإضافة إلى منصبه السابق كأتابكي للعسكر،

وبطبيعة الحال لم يكن الطفل في هذا العمر يدرك شيئاً من أمره، فقد اتخذ قوصون هذه القرارات، واستغل اسم السلطان لتمريرها، بما يجعل الأمير حاكماً رسمياً يختفي وراء واجهة سلطانية! وهو ما تحقق له بالفعل، فقد أطاح قوصون بالأمراء الموالين للأخ المخلوع ومن بينهم بشتاك الذي اُعْتُقِلَ وسُجِنَ بالإسكندرية، ثم قُتل هناك في العام نفسه، وسيأتي ذكر مسجده لاحقًا نظراً لارتباطه بحواديت حِقبة أخرى جاءت بعد قرون، كما أرسل من يقبض على الطنبغا المارداني نائب الشام، وصار يقبض كل يوم على عدد من الأمراء.

بعد افتتاح شارع محمد علي وضع علي باشا مبارك خطة لتجديد المسجد اكتملت عام ١٨٩٣م، ولم يبق من معماره الأصلي سوى أجزاء بسيطة، ورغم ذلك يشعر الزائر حاليًّا أنه أمام منشأة عتيقة بعد أن أصبح المسجد حتى بعد تجديده الحديث تاريخياً، فقد مضى على إعادة إنشائه أكثر من قرن. كان قوصون يقيم في قصر فخم خلف مسجد السلطان حسن، وعاش حياة اتسمت بالبذخ الشديد؛ فيقال إن الآنية التي كان يستعملها وسروج خيوله كانت من الذهب والفضة، بخلاف كميات هائلة من الجواهر تمَّ العثورُ عليها في القصر، ويبدو أن ذلك انعكس على مسجده، ففي كتاب صدر عام ١٨٧٧م وصف المهندس

بريس دافين المنبر أنه تحفة فنية، تفوق نقوشه تلك الموجودة في منبرالصالح طلائع.

لم يشعر الرجل بالراحة رغم أنه أصبح الحاكم بأمره، فقد كان الأمير أحمد الابن الأكبر للناصر محمد بن قلاوون يقيم في مدينة الكرك، مما يهدد الأمير الطموح، فقرر الأخير أن يستقدمه ليضمَّه إلى إخوته بالسجن، ظن أحمد أن استدعاءه بهدف توليته السلطنة خلفاً لأخيه الذي لا يزال طفلاً، فاشترط ألا يعود إلا بعد إطلاق سراح إخوته الذين قبض عليهم الوزير. وبعد مناوشات كلامية عبْر المراسيل- تم إرسال قوة للقبض عليه، وتطورت الأحداث بسرعة؛ فقد بايعت القوة الأمير أحمد على السلطنة، بينما كان مماليك السلطان الناصر بالقاهرة، يعلنون التمرد على قوصون، بعد أن ضاقوا بأفعاله؛ خاصة بعد أن قتل السلطان المخلوع والأمير بشتاك. من جانب آخر بدأ المواطنون إعلان ضيقهم مما يجري بمصرَ، وأخذوا يتجرءون بالكلام الذي سيتطور بعد ذلك. وأرسل قوصون قوة أخرى للقبض على الأمير أحمد رغم أن الأمراء الموالين له نصحوه بألا يفعل، وبدلاً من أن تقبض القوة على الأمير بايعته على السلطنة وأطلقوا عليه لقب الملك الناصر. اشتعلت الأمور في القاهرة حيث تمَّت مصادرةُ أموال

الأمراء الذين انحازوا للمعسكر المُضاد. وجاءت الأخبار من الشام أن الأخير يحقق انتصارات هناك، وبدأ الأمراء بمصرَ التمرد على قوصون، وحدث التحام بالقاهرة بين الأخير ومعارضيه فانتصر عليهم، لكن النصر كان مؤقتاً، فقد بدأ الأمراء المهزومون تحريض العامة على محاصرة القلعة، ونهب ممتلكات قوصون، ومن بينها المسجد الذي دفع ثمن ممارسات صاحبه، وانقلبت الآية عليه، فتمَّ اعتقالُه مع أمرائه وترحيلُهم إلى الإسكندرية مُكَبَّلين بالأغلال، لحمايتهم من المواطنين الثائرين! ونهب الناس أملاكهم، حتى إنه كان يكفي لنهب ممتلكات أي إنسان القول بأنه قوصوني.

استغرقت فترة حكم الأشرف كجك خمسة شهور فقط، وهو ما يعني أن الأحداث المتسارعة لم تستغرق وقتًا طويلًا، لتطيح بأحلام الأمير قوصون الذي تُوُفِّي في سجن الإسكندرية بعد هذه الوقائع بعام واحد. بينما عاد السلطان أحمد وأفرج عن إخوته، وظل السلطان السابق كجك تحت الإقامة الجبرية.



مسجد بشتاك

"بشتاك"

مكانٌ واحدٌ.. وأميران مُضطّهدان!

لافتة قماشية بعرض الشارع[٨]، تعلن عن مساعدات خيرية تطلقها الجمعية المُلْحَقة بالمسجد أكدت اسمه الذي أُشْتُهِرَ به، وطغى على اسم منشئه. فسيطر الأمير مصطفى فاضل، وغاب الأمير بشتاك، الذي لم يعد الكثيرون يذكرون أنه من شيَّد المسجد الأصلي، تمامًا مثلما تغيرت تفاصيل المكان بشكل جِذْرِي، فقد اختفت بركة الفيل التي كان الجامع يزهو بوقوفه على شاطئها، ولم تعد إلا ذكرى في صفحات كتب منسية!

تتكرر ظاهرة المساجد التى تُعْرَفُ باسمين في أكثر من موقع، لكن محبي الآثار لا يزالون يذكرون اسم الأمير بشتاك من قصره بشارع المعز، والذي يُظْهِرُ ولع صاحبه بالفخامة؛ ولهذا يبدو الجامع الموجود في نهاية درب الجماميز فقيرًا، مقارنة بالقصر الذي كان ذات يوم مبهرًا، والفارق الكبير ليس ناتجاً عن تفرقة الأمير في المعاملة بين بيت الله وقصره، فقد ذكر المقريزي أن المسجد من أبهج الجوامع وأحسنها رخاماً، مما يعني أن الزمن ذهب بتفاصيله القديمة، وعند إعادة إعماره بعد تأسيسه بخمسة قرون- أُعيد بناؤه من الداخل بالكامل،

---

[٨] درب الجماميز- السيدة زينب

وحافظ مهندسه الجديد على الباب القديم والمِئذنة، في عصر اختلف في مقاييسه الجمالية، والبذخ في الإنفاق.

كان الأمير المملوكي يتمتع بالحُظْوة لدى الناصر محمد بن قلاوون، وتعاظمت قوته وبلغ تفاخره لدرجة أنه لم يكن يتحدث مع من حوله إلا عبْر مُترجم رغم معرفته باللغة العربية، وكان معروفًا بتهتكه وبذخه. ومن الطبيعي أن يكون لشخص بهذه السمات أعداء كثيرون؛ أبرزهم الأمير قوصون الذي كان أحد أسباب الوقيعة بينه وبين السلطان الجديد، ويبدو أن قوة الأمير تزايدت، لدرجة أن الإيقاع به تطلَّب اللجوء للحيلة، فقد وافق السلطان على طلب بشتاك بأن يكون نائباً لدِمَشقَ، ورأى الأمير أن الزمن ليس زمنه فقرر الابتعاد، حتى تتغير الدفة لصالحه، لكن دهاء قوصون جعله يرتاب في عدوه، وربما توقَّع أنه يبتعد ليرتب أوراقه في الشام ويُكوِّن جيشاً يقلب موازين الأمور؛ لهذا مضى السيناريو بشكل مغاير، وعندما ذهب بشتاك ليودِّع السلطان- قبل أن يسافر لتسلُّم منصبه الجديد- تمَّ القبضُ عليه ونقله إلى الإسكندرية وسجنه، ثم قُتِلَ عام ١٣٤٧م، وأُعيد جثمانه إلى القاهرة ليُدْفَنَ بها.

من شارع بورسعيد تبدو المِئذنة شامخة، فقد صمدت في وجه تقلُّبات عديدة غيَّرت معالم الأحياء المحيطة بشكل جِذْري، ولم يسلم منها المسجد الذي لا نعرف تصميمه الأصلي، لكن وضعه الحاليَّ لا يملك القدرة على الإبهار. عندما زرتُه لأول مرة توقعتُ تحفة معمارية، كانت تفاصيل قصر بشتاك ما تزال مستقرة بذاكرتي، فرغم أن الزمن جار عليها هي الأخرى لكنها ما تزال تحتفظ بجاذبيتها. وقفتُ أمام مدخل المسجد، كان عاديًّا لا يختلف عن مداخلَ أخرى أكثر حداثة منه، لكن بمجرد عبوره استقبلني المدخل الحجري القديم الذي يؤكد أن ما خفي - بفعل الزمن- كان أعظم، بسقفه الذي تتدلى منه مقرنصات بديعة، وتفاصيله التي تنُمُّ عن براعة صانعها.

قبل مقتله بنحو عشر سنوات أقام بشتاك مسجده، ثم تدهورت حالته تدريجياً، فخضع للترميم عام ١٦٣٦م، وفي عام ١٨٦١م أعادت إعماره الأميرة أُلْفَت هانم قادن والدة مصطفى فاضل الذي نفاه شقيقه الخديو إسماعيل إلى الآستانة أو فرَّ إليها من تلقاء نفسه، وبعد أن اغتصب إسماعيل منه ولاية العهد ونقلها لأبنائه، ومع إعادة الإعمار لم يبق من أصل المسجد سوى المِئذنة، ومدخله الحجري الداخلي المبهر الذي اختفى وراء باب أحدث يتسم بالبساطة. وقد

دُفِنَ فيه الأمير مصطفى فاضل، بعد عودة جثمانه من الآستانة، كما دُفِنَ فيه ابنُه. وكانت معظم قراءات الشيخ محمد رفعت من هذا المسجد حتى إن البعض أطلقوا اسمه على المكان.

فى إطار الصراع على السلطة فقد بشتاك حياته، ومثله فقد الأمير مصطفى فاضل حقه في حكم مصر، بعد حادث قَدَري وآخر تمَّ التخطيطُ له بعناية، الغريب أن الحادث الذي رتبته الأقدار كان يسهم في جعله قريباً من الحكم الذي لم يكن يحلم به، هو أو شقيقه إسماعيل، فوَفْقًا لمعاهدة لندن عام ١٨٤٠ - أصبح الحكم وراثياً في أسرة محمد علي، لكنه ينتقل إلى أكبر أبناء الأسرة العلوية سِنًّا، وكان الشرط ينطبق على شقيقهما الأكبر الأمير أحمد رفعت، والذي كان يستعد لحكم مصر بعد رحيل سعيد باشا، لكنه لقي مصرعه في حادث؛ ليصبح إسماعيل أكبر أبناء الأسرة سِنًّا، بالتأكيد شعر إسماعيل بالسعادة بعد أن أصبح صاحب الدور في الحكم، وربما انتابت مصطفى فاضل الفرحة؛ لأنه اقترب خطوة من المنصب، لكن إسماعيل لم يترك الأمور لتصاريف الأقدار، وبمجرد توليه الحكم في ١٨٦٣م بدأ سعيه الدءوب لتغيير مسار ولاية العهد. فتودد للسلطان العثماني عبد العزيز، وزار الآستانة ودعا السلطان لزيارة مصرَ، وبعد توليه الحكم بثلاث

سنوات كان قد نجح في تغيير نظام التوريث، باستخدام سياسة الهدايا ومضاعفة الجزية السنوية التي تدفعها مصر للعثمانيين، وبالفعل أصبح الحكم حقًّاً لأكبر أبناء الوالي الذي حصل على لقب خديو. انتقل الأمير مصطفى فاضل إلى الآستانة، وخلال إقامته بها باع كل ممتلكاته بإرادته أو مضطرًّا لشقيقه الخديو، وأثناء اطلاعي على كتاب" تقويم النيل" لأمين سامي باشا عثرتُ على عقد البيع الذي كان يشبه عقود الإذعان، وتمَّ توقيعُه بعد تحويل نظام تولِّي الحكم بشهور، وجاء في مقدمة النص: "ترجمة صورة القونتراتو المعقود ما بين سعادة مصطفى فاضل باشا عن مبيع أملاكه لسعادة ولي النعم وما بين سعادة نوبار باشا بطريق التوكيل"، وأوضح العقد: "سعادة مصطفى باشا باع وتنازل ونقل إلى خديو مصر الذي قبل ذلك من جميع أملاكه الكائنة بالقطر المصري على حالتها التي عليها الآن، وتشمل على كافة أملاكه وأطيانه وأراضيه المزروعة وغير المزروعة، والأشجار والزراعة والمعامل والفابريقات والماكينات التجارية والسواقي وبيوت السكن وبيوت النزهة والأبنية والعمارات ومحلات التشغيل وخلافها، ومراكبه التي بالنيل وكذا السرايات وملحقاتها والبيوت والدكاكين المُعَدَّة للإيجار والأراضي المبنية وغير المبنية الموجودة بمدن مصر

وقراها بدون أن يلزم الحال لتعداد وتخصيص الأملاك التي هي الغرض من هذه المبايعة". بطبيعة الحال لا يبدو الحصر مطلوباً؛ لأنه قد يكون مستحيلاً مع كثرة الأملاك؛ لهذا اكتفى العقد بالعناوين العامة، لكن الخديو المشتري لم يكتف بممتلكات شقيقه، بل سعى لنزع كل ما يمكن أن يؤدي إلى عودته لمصرَ ذات يوم، حيث أضاف: "من المعلوم أن الأملاك المبيعة حالاً تحتوي على الأملاك التي كانت تتعلق بالمرحومة والدة سعادة مصطفى باشا، وكذلك جميع الأملاك المذكورة باقية باسم المرحومة، وكذا جميع الأملاك التي حُجَجُها باسم حريم سعادة مصطفى باشا أو باسم أولاده(.......) من المعلوم أيضًا أن الأراضي والأبنية والعمارات وخلافه، والتي يكون سعادة مصطفى باشا أعطاها من ضمن ملكه بالقبة أو من أملاكه الأخرى بأي صورة- كانت إلى توابعه ومماليكه، وإلى أشخاص آخرين، مع البيوت والمباني والعمارات التي تكون قد أُنْشِئَتْ بها سواء كان قبل الإعطاء أو بعده؛ جميعها داخلة في هذه المبايعة، وداخلة ضمن الثمن المحدد الآتي بيانه أدناه، بما أن سعادة أفندينا ولي النعم صار مالكاً لذلك، وليس عليه دفعُ شيء زيادة في الثمن، وسعادة مصطفى باشا يصطفل فى جميع الدعاوي والتداعي وماليات التعويضات التي يمكن حدوثُها

في هذا الخصوص". أي أن كل التعاقدات والمنح السابقة مُلغاة، فإذا طالبَ أي مستفيد بتعويض فعلى الأمير المقهور أن" يصطفل" معه!!

بالتأكيد ينتاب الجميع فضول لمعرفة ثمن هذه الصفقة، وقد حددها البند الخامس بدقة: "قد صار أعمال هذه المبايعة والتوافق والتراضي عليها بمبلغ وقدره اثنين مليون وثمانين ألف ليرا استرلينة". حاولتُ إيجاد معادل عصري لهذه القيمة وأعترف بعجزي؛ لهذا فالأمر متروك لمن ينجح في ذلك، لكن الغريب أن المبلغ لن يُسَدَّدَ مرة واحدة، بل بالتقسيط المريح حسبما ذكر البند السادس: "يصير دفع هذا المبلغ من طرف سعادة أفندينا ولي النعم لسعادة مصطفى باشا في ظرف خمسة عشرة سنة مع فوايد تسعة في الماية سنوى من تاريخ هذا القونتراتو ومن أجل ذلك دايرة سعادة أفندينا ولي النعم تحرر كشف بيان فايض ودفعيات هذا المبلغ "...." وتُعْطَى به سندات لسعادة مصطفى باشا تُدْفَعُ لحاملها، وشكل هذه السندات يكون على شكل سندات الاستقراضات المصرية، وتلك السندات يصير ختمها من ناظر الدايرة الخديوية، وتحت ضمانة الحكومة المصرية". أي أن الخديو إسماعيل جرَّد أخاه من ممتلكاته، مثلما سبق أن سلبه أي فرصة مُحتملة للحكم، وفي حالة عجزه عن

السداد يتولى الضامن ذلك، والضامن هو الحكومة، والمهدد بالدفع هو الشعب نفسه؟! لكن إسماعيل كان رحيماً، فقد ترك لمصطفى باشا موطىء قدم، حيث نص البند التاسع أن: "البيت الكائن بباب الحديد وكذا الموبليات الموجودة بسرايات درب الجماميز والقبة والرملة فهي غير داخلة من ضمن المبايعة"!!

عندما قرأتُ العقد استعدْتُ تفاصيل المصادرات التي كان يقوم بها حكام العصور السابقة لأملاك الأمراء والوزراء المغضوب عليهم، فتعجبْتُ من حجم الأموال المنهوبة من هذا البلد، بينما الشعب يعاني ضيق ذات اليد، وفي الوقت نفسه يدفع الضرائب والرسوم التي تزيد حدة إرهاقه. تساءلتُ عن وضع كل إنسان لو لم يكن الفساد ضارباً بجذوره، لكن أذان العصر صرف الشياطين التي توسوس لي بهذه الأفكار العبثية عن العدالة الاجتماعية الفقيدة.

صليتُ في مسجد" بشتاك- فاضل"، وخرجت قبل أن تداهمني الأفكار من جديد، لكن سؤالاً باغتني فجأة، وتعجبْتُ؛ لأنه لم يخطر ببالي من قبلُ: إذا كان الأمير مصطفى فاضل وولده هما المدفونين هنا، فأين وُورِيَ جثمانُ مؤسسِ المسجدِ الأصلي، عدْتُ لابن إياس فلم أجد لديه إجابة، لكن حسن عبد الوهَّاب ذكر أن جثمان بشتاك انتقل من الإسكندرية إلى القاهرة، ودُفِنَ في تربة

الأمير سنجر الجاولي بالسيدة زينب؛ أي أن قاتله كان يرغب في التنكيل به حتى بعد رحيله، فحرمه من الاستقرار في المسجد الذي أنشأه!



مسجد المرداني

" المرداني"

مسجدُ الثوْرِ الذهبيِّ!

عندما زرتُه قبل سنوات فتنني[٩]، ربما أكون مغرما بالطراز المملوكي الذي يجعل المُصَلِّي يشعر بأنه في علاقة مفتوحة مع السماء دون أية عوائق حتى لو كانت مجرد سقف. الشجرات التي عاشت عمرها في صحنه منحته رونقًا إضافيًا زاد من جاذبية زخارفه بتفاصيلَ مفعمةٍ بالحياة، لكني شعرتُ أن مسجد الطنبغا المردانى ينطبق عليه هوالآخر المثل الشائع: ارحموا عزيز قوم ذُل. فقد كان يعاني الإهمال، والشروخ تنتشر ببعض جدرانه، رغم أنه كان ذات يوم واحدًا من المساجد ذات الحُظْوة نظرًا لتصميمه الجذاب، وأيضا لنفوذ صاحبه الذي يعني لفظ الطنبغا في اسمه: الثور الذهبي.

كان مؤسسه من المُقرّبين إلى الناصر محمد بن قلاوون، فقد رقَّاه في المناصب، فجعله ساقياً؛ أي مسئولا عن إعداد مائدة السلطان، ثم تقديم المشروبات عقب رفعها. وظيفة قد تبدو بسيطة، لكنها كانت ذات أهمية استثنائية فى عصر اشتهر بمكائده؛ لهذا كانت تتطلب شخصا موثوقا فيه، وبعد فترة بسيطة أصبح أمير طبلخانة؛ أي المسئول عن الفرقة التي تعزف على باب القصر الملكي. وزوَّجه

---

[٩] الدرب الأحمر

الناصر ابنته بعد أن جعله مقدم ألف، وهي رتبة شبيهة باللواء في عصرنا الحديث، كما بنى له قصرًا سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن مسجد السلطان حسن.

بمجرد رحيل الناصر بن قلاوون تغيَّرت أحوال المرداني، لنقع أمام تضارب في المعلومات التاريخية التي توردها الكتب؛ حيث ذكر حسن عبد الوهَّاب أن المنصور أبو بكر بن الناصر قلاوون الذي تولى السلطنة بعد رحيل والده قبض على المارداني، ثم أفرج عنه خليفته الأشرف كُجك، بعدها عيَّنه سلطان ثالث هو الصالح إسماعيل بن قلاوون نائباً لمدينة حماة بالشام، واستمر بها لشهور قبل أن يُصبح نائباً لحلب، حيث تُوُفِيَ بها بعد فترة وجيزة في ١٣٤٣م. لكن ابن إياس يذكر وقائع أخرى تتناقض تمامًا مع ما رواه عبد الوهاب، فلم يورد أي ذكر للمرداني في فترة المنصور. وبعد تولي السلطان الطفل كُجك، كان الأمير قوصون هو المسيطر فأمر بالقبض على المارداني الذي كان نائباً بالشام، لكن يبدو أن الأمر لم يتم حيث تمت الإطاحة بقوصون وكُجك، وجاء الناصر أحمد بن قلاوون ليعزل المارداني من منصبه، وبعد شهرين فقط قضاهما في الحكم تمَّ خلعُ الناصر وتولى الصالح إسماعيل، وبدلاً من أن يُعَيَّن الماردني نائبا حسبما قال

حسن عبد الوهَّاب، أمر بالقبض عليه وَفْقَ رواية ابن إياس، وأرسله مُقيَّداً إلى سجن الإسكندرية!

بدأ الطنبغا تأسيس جامعه عام ١٣٣٧م، في حياة الناصر بن قلاوون، ونظرًا لقربه منه يُقال إنه استغل اسم الناصر بشكل مُبالَغ فيه، عند نزع ملكية المباني المقامة على الأرض التي سيُبنى فيها المسجد، حيث زعم أنها تُنْزَعُ لصالح السلطان، ولم يحصل مُلَّاكها إلا على نحو نصف قيمتها الحقيقية!

عندما زرتُه قبل كتابة هذه السطور، كان مشروع ترميمه مستمرًّا بالتعاون مع مؤسسة أغاخان، فقد انطلق بعد سنوات طويلة من نداءات متكررة تطالب بإنقاذه من حالة تدهور أصابته. حتى مشروع الترميم الحاليِّ لا يشمل إلا جانباً منه. وكان آخر ترميم شامل شهده المسجد في الفترة من ١٨٩٦م حتى ١٩٠٣م. ويذكر حسن عبد الوهَّاب أن معاينة المسجد عام ١٨٨٤م كشفت أنه كان في حالة بالغة السوء؛ جدرانه مائلة ومهدمة، مِئذنته ناقصة، وأغلب رخامه مفقود. أما المنبر فارتبط بحادث لا يخلو من مفارقة، فقد تمت سرقة أربعين حشوة منه، وانتقلت إلى أوروبا، ثم عادت لتُباع في مصرَ عام ١٩٠١، واشترتها لجنة حفظ الآثار العربية بثمانين جنيها، وأعادتها للمنبر وأصلحته. مرَّ أكثر من

قرن بعدها، ليشهد المنبر نفسه سلسلة سرقات عجيبة، فعلى مدار عشرة أيام في منتصف ٢٠٠٨م تعرَّض للسرقة ٣ مرات، حدثت الأخيرة منها بعد إبلاغ الشرطة فعلياً ومعاينة المكان.. وأكد عدد من علماء الآثار وقتها أن من قاموا بالسرقة أفراد تشكيل عصابي، ليس محترفاً فقط بل يبدو مُتخصصاً، يعرف كيف يختار ما يسطو عليه، ثم ينزعه باحترافية أدت لفقد حشوات من الجانب الأيمن للمنبر، وبعد أسبوع تم نهب أجزاء من الجانب الأيسر، وعقب يومين آخرين قام اللصوص بسرقة قطع علوية من المنبر نفسه..

" صرغتمش"

مدرسةٌ مصريةٌ بتأثيراتٍ فارسيةٍ

في أحد أيام عام ١٣٥٦م وقف الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري ليتأمل منشأته الدينية[١٠] الضخمة بعد اكتمال بنائها، لم تكن مجرد مسجد، بل مدرسة للفقه الحنفي. في خلفيتها يبدو المسجد الطولوني الأكبر عمرًا بخمسة قرون، لكنه كان قد استعاد شبابه نسبياً قبل نصف قرن من افتتاح مدرسة صرغتمش التي منحت المكان ثقلاً نسبياً ليصبح فريداً بمنشأتين من علامات العمارة الإسلامية في عصرين مختلفين. لماذا اختار الأمير المملوكى هذا الموقع تحديداً لبناء مدرسته؟ هل نبع ذلك من إحساسه بأن نفوذه ينافس الملوك؟ ربما. فقد تزايدت سطوته في فترة تعاقب عليه فيها سلاطين اتسمت فترة حكمهم بالقِصَر، كما سبق أن ذكرتُ.

في العمائر المملوكية سيتكرر اسم الناصر محمد بن قلاوون كثيراً، عَبْرَ مماليكه الذين ساروا على نهجه، فتنافسوا في تشييد المساجد، وكان الأمير صرغتمش واحداً منهم. وعندما تمَّ خلع السلطان حسن من سلطنته الأولى، بدأ نجم صرغتمش يزداد بزوغًا في عهد الصالح صلاح الدين صالح بن قلاوون. ولم

---

[١٠] شارع الصليبة

يكن صرغتمش المسيطر على الأمور؛ لأنها كانت في يد الأمير طاز، لكنه كان يملك نفوذاً لا بأس به، وما يدل على ذلك أنه اختلف مع الوزير علم الدين بن زنبور الدميري، فقبض عليه وقيده، ثم أخبر السلطان بعد أن اتخذ تلك الإجراءات فعلياً، وبدلا من أن يغضب السلطان وجه الشكر لصرغتمش؛ ربما لأنه لا يستطيع أن يلومه. وبعد الإطاحة بالصالح قرر الأمراء إعادة السلطان حسن فكافأ قائد الانقلاب الأمير شيخو العمري بمنصب كان الأول من نوعه في تاريخ المماليك، وهو أمير كبير، والذي صار أعلى شأناً من منصب نائب السلطنة، والغريب أن صرغتمش ناله من الحب جانب كبير، رغم أنه لم يكن من مضطهدي السلطان السابق، حيث أصبح رأس نوبة الأمراء؛ أي أنه مع شيخو أمسكا بمقاليد الحكم في المملكة المصرية. وعندما حصل على هذا المنصب بدأ بناء مدرسته، وبعدها بعام بدأ شيخو تشييد جامعه في المنطقة نفسها. وفي العام التالي بدأ السلطان حسن تشييد مدرسته.

مات شيخو فتولَّى صرغتمش منصب أتابك العسكر وقبض على الأمير طاز، ورغم أن الأخير كان المسيطر خلال فترة السلطان السابق، فإن الانقلاب لم يشمله؛ لأن الأمير شيخو كان من رجاله، وبدلًا من أن تشمله العقوبات تمت

توليته نيابةَ حلب، وفتحت وفاة شيخو الباب لصرغتمش كي يحسم خلافاته القديمة مع طاز ويسجنه في الإسكندرية.

احتفل الأمير صرغتمش بافتتاح مدرسته في شارع الصليبة بحضور الأمراء وقضاة المذاهب الأربعة، وصارت مركزاً لعلماء المذهب الحنفي، خاصة من الفرس الذين اهتم بهم صرغتمش، ويُرَجَّحُ أن مصمم هذه المُنشأة الدينية أيضًا كان فارسياً لوجود تأثيرات فارسية في عمارتها. تسبب بناؤها فى إغلاق بابين من أبواب مسجد ابن طولون، وخلال كتابة هذه السطور أصبح بابها نفسه مغلقاً، بعد أن سقط أحد أسقفها منذ نحو عام، والغريب أنه لم يمض على مشروع ترميمها إلا عشرون عاماً؟!

طرازها يمضى على نسق العمارة المملوكية المشابهة. صحن مكشوف تحيط به أربعة إيوانات. ورغم تكرار الطراز فإن الواقف فى صحن "صرغتمش" يشعر بسكينة روحانية، تمتزج بجماليات تمنح اللحظة نكهة خاصة، فالمبنى ليس فقط من أبدع المباني وأحسنها مثلما وصفه المقريزي، بل يمنح زائره طاقة روحية هائلة، وينقله بين أزمنة وأماكن عديدة، فإطلالة سريعة على القبة تحيل إلى مثيلاتها في سمرقند، لتضيف طرازاً للقباب يظهر لأول مرة في مصر، وتسجل

القبة رقماً قياسياً آخر بكونها الأولى من نوعها الباقية فوق محراب مدرسة، رغم أنها تهدَّمت وأعيد بناؤها عام ١٩٤٠، اعتماداً على صورة قديمة لها. ويذكر حسن عبد الوهَّاب، أنه خلال إصلاح أرضية الصحن عام ١٩٤٥م تمَّ العثورُ على لوح كبير يضم رسوماً لعناقيدَ عنبٍ، وبه صور حيوانات وطيور، وهي ظاهرة غريبة ربما تكون الأولى من نوعها في مسجد.

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع، لا ينطبق هذا القول على صرغتمش وحده، بل يمتدُّ إلى كثير من الأمراء المماليك، فقد زاد نفوذ الرجل بدرجة أزعجت السلطان حسن نفسه، وأخبره بعض الأمراء أن صرغتمش يخطط للانقلاب عليه، ودعا السلطان الأمراء إلى القلعة وبعد اجتماعهم أمر بالقبض على صرغتمش، ولما سمع مماليكه بذلك لبسوا ملابس الحرب واتجهوا للقلعة لكن المماليك السلطانية هزموهم، وعندما علم العامة بما جرى هاجموا بيته ونهبوا كل ما فيه، حتى إنهم خلعوا الرخام من جدرانه، ولم يسلم مسجده من النهب! وتعرَّض لما سبق أن عاناه قوصون، وامتدَّ الأمر إلى مماليكه الذين لم تسلم بيوتهم وممتلكاتهم من الهجمات والسطو، وتمَّ إرسالُ صرغتمش وعددٍ من الأمراء المحسوبين عليه إلى سجن الإسكندرية، وبعد فترة بسيطة تمَّ الإعلانُ عن وفاة

وزير الدفاع السابق، وأشيع أنه تعرَّض للخنق، ثم نُقِلَتْ جثته لتُدْفَنَ في مدرسته.

" برقوق"

أولُ المساجد الجركسية[١١]

في الظروف العادية تكون العبودية مصيراً لا يمكن الفرار منه، تَكْتُبُ على صاحبها مسارًا واحدًا، لا يُفرِّقُ بين ابن ملك تعرَّض للخطف أو آخرَ ينتمي إلى عائلة فقيرة. هنا يتساوى الجميع بعد أن يُصبح الرِّقُّ هو العاملَ المشتركَ.

لكنْ العصر المملوكى هدم المُسلَّمات، وفتح أبواب الطموح أمام الجميع. المهم أن يكون المملوك شجاعاً أو مُتسلِّقاً يتسلَّح بقدْر لا يُسْتَهَانُ به من الخسة، والأفضل أن يجمع بين الصفتين كي يستطيع شقَّ الصفوف إلى أعلى. لهذا استقبلت مصر صِبية كثيرين بعد بيعهم في أسواق النَّخاسة. كل منهم ظن أنها نهايته، لكنه وجد في المناخ العام ما يتيح له فرصة تغيير مصيره. منهم من تحوَّل إلى أمير، ومنهم من تولَّى الحكم، وحاول البعض فتح باب التوريث لأبنائهم. أنصف المؤرخون بعضهم، وتحاملوا على البعض الآخر، لكن كل قصائد المدح أو الذم قابلة للتشكيك فيها!

تتباهى مدرسة برقوق بمكانتها في شارع المُعز، لكن أحجارها لا تحتفظ بالكثير في ذاكرتها؛ ليس لأن فترة حكم مؤسسها كانت هادئة؛ بل لأن ما شهدته الحِقبة

---

[١١] شارع المعز

من اضطرابات ودماء، كان يجري على بعد كيلومترات في مقر الحكم بالقلعة، والتي رصدت عشرات الوقائع الدموية في عصر لم تكن ألاعيب الأمراء تتوقف فيه، واستمرت حتى بعد الإطاحة بالسلطان برقوق. كان قد بقي في الحكم مدة ستة أعوام وشهور قليلة، وتمَّ الانقلاب عليه ونفيه إلى الكرك. حاول السلطان الجديد قتله، لكنه نجا وبدأ الثورة المضادة، ونجح في العودة إلى الحكم وتخلَّص من معارضيه القدامى بعد معاركَ ممتدَّةٍ، وأفرزت المكائدُ معارضين جددًا، وأحيانًا انطلقت المؤامرات من منصات غير سياسية، مثل واقعة غريبة سنعرضها بعد قليل.

اختار الظاهر برقوق موقع مدرسته في شارع بين القصرين، وأقامها مكان فندق كان يُعْرَفُ باسم "خان الزكاة"، يملكه ورثة السلطان الناصر بن قلاوون، اشتراه منهم وهدمه ليبدأ بناء أول منشأة معمارية في عهد المماليك الجراكسة، باعتباره أولَ سلاطين هذه السلالة، ووضع حجر أساسها عام ١٣٨٤م، وقد جلب مُهندسها شهاب الدين أحمد بن الطولوني أحجارًا ضخمة من المقطم لبنائها، ووضعها على عجل لتجرَّها العجول، وحُمِلَتِ الأحجارُ الضخمة من وقتها اسم "عجَّالى". وبمجرد الانتهاء من تشييدها نقل السلطان رُفاتَ والده

أنس إليها، وانضم له بعد سنوات خوند شيرين زوجة السلطان وابنه محمد وابنته فاطمة، والغريب أن السلطان نفسه لم يُدْفَنْ بالضريح الفخم؛ لأنه أوصى أن يُدْفَنَ تحت أقدام مشايخ الصوفية في صحراء المماليك.

أعجبت المدرسة برقوق بعد الانتهاء من تشييدها، فكافأ الأمير جركس الخليلي الذي أشرف على بنائها، وشملت المكافآت خمسةَ عشرَ من مماليكه ساعدوه فى مهمته، فضلاً عن المهندس الذي لم يكتف السلطان بمكافأته، بل تزوَّج ابنته بعد فترة. وبعيدًا عن حواديت التاريخ القديم نَوَدُّ أن نشير إلى أن المدرسة تقف في مواجهة منزل السيد أحمد عبد الجواد، في ثلاثية نجيب محفوظ؛ حيث ذكر في "بين القصرين" أن الست أمينة كانت تُطِلُّ من البيت على هذا البناء الضخم بتكوينه المعماري المتميز، وهي" جغرافيا كاذبة" اخترعها خيال الأديب الكبير؛ لأن الموقع الذي ينطبق عليه وصف الرواية، لا يضم سوى سبيل محمد علي بالنحاسين، مما يؤكد أن محفوظ لم يكن يرصد جغرافيا المدينة القديمة، كما يعتقد البعض، بل صنع من خياله تكويناتٍ تناسب أحداث رواياته، وكان الروائي الراحل جمال الغيطاني هو أول من نبَّه لهذه المفارقة.

في حِقبة المماليك لم يكن السلطان هو الفاعلَ دائمًا، فكثيرًا ما كان يتحول إلى مفعول به! يواجه المؤمرات، ويُصْدِرُ قراراتٍ يُضْطَرُّ إلى التراجع فيها، بعد أن يرفض بعض الأمراء تنفيذها، بل وقد يحتشدون لاستعراض قوتهم، وهو فعل لا ينطوي على التهديد فقط؛ لأنه امتدَّ في بعض الأحيان إلى الإطاحة بالحاكم، والمؤامرة قد تنطلق أحيانًا من سبب شديد التفاهة.

حادث بسيط، لكنه تصاعد بصورة درامية، رغم أن الأمور على السطح تبدو هادئة، لكن ما خفي كان أعظم. فقد أُعْجِبَ مملوكٌ لأمير يُدعى آلي باي بجارية يملكها أمير آخر اسمه آقباي الطرنطاي. راودها عن نفسها، فلم يكن منها إلا أن أسمعته من الألفاظ المُنتقاة ما جعله يتراجع. وبادر أكثر من فاعل خير أو هي شخصياً بإبلاغ سيدها فثار ثورة عارمة، واتجه إلى بيت جاره آلي باي، وقبض على المملوك المُتحرِّش، وعاقبه بالضرب أربعمائة عصا، وكان المملوك من المقربين لسيده، فغضب وانطلق إلى القلعة كي يشكو للسلطان ما وقع من نظيره، وتوقَّع أن يعاقبه عقاباً شديدًا، لكن برقوق لم يلتفت لكلامه؛ ربما لأنه رأى أن القِصاص كان عادلاً. هنا هدَّد آلي باي بأنه سيأخذ ثأر مملوكه بنفسه،

وعندما تعرَّض كلامه للإهمال مرة ثانية، هبط إلى منزله في أسوأ حال، واتخذ قراره العجيب، بأن يقتل السلطان شخصيًّا!

يؤكد ابن إياس أن القاهرة لم تكن قد شهدت مدرسة بعظمة تلك التي أنشأها برقوق، فيقول:" لم يُعَمَّرْ مثلُها بالقاهرة، ورتَّب فيها صوفية بعد العصر فى كل يوم، وجعل بها سبعة دروس لأهل العلم(...) وأجرى على الجميع في كل يوم الخبز النقي، ولحم الضأن المذبوح، وفي كل شهر الحلوى والزيت والصابون، ووقف على ذلك من الأوقاف الجليلة من الأراضى والدور وغيرها". يبدو ابن إياس مبالغاً بعض الشيء، فبجوارها توجد منشآت المنصور قلاوون وابنه الناصر التي لا تقلُّ في عظمتها عن مدرسة برقوق، كما أنها أقدم منها تاريخياً، لكن الجملة الاعتراضية السابقة لا تُقلل من شأن مدرسة برقوق، فمجرد جولة عابرة داخلها تُثْبِتُ أنها منشأة فريدة بالفعل تضيف إلى عظمة العمارة المملوكية دعامة أساسية في تطورها. لكن جمالها الحاليَّ ليس عريقاً فى مجمله!

فتنة الجارية

ظل" أمير الانتقام" في بيته متمارضاً لأيام، يتحيَّن الفرصة المناسبة لتنفيذ خُطته، وجاءت عندما ذهب السلطان إلى مقياس النيل، ليفتح السدَّ كعادته مع بَدْء الفيضان؛ كان ينوي أن يزور الأمير المريض في طريق عودته ليطمئن على

صحته. اقترب منه أحد المماليك وطلب أن يحادثه، لحسن الحظ لم يعاجله الحرس بالطعنات؛ لأنه تجرأ واقترب من السلطان، فإنهم لو فعلوا لما وجدوا الوقت للتباهي في شوارع القاهرة بأنهم أحبطوا مؤامرة فاشلة لاغتيال الزعيم! أخبر المملوك سلطانه أن داره مُطِلَّة على بيت آلي باي، وأنه شهد مماليكه وقد لبسوا ملابس الحرب، واختبئوا في جوانب الطرق ينتظرونه، وتعجَّب السلطان ولم يُصدِّق؛ لأنه من قام بتربية الأمير المارق، لكنه قرر أن يتصرف بحذر، ووضع احتمالاً أن التربية أحياناً قد تكون فاسدة، وهو أمر ليس غريباً على طباع المماليك.

كان من عادة المواكب السلطانية أن ترتفع بها شارة توضح مكان السلطان، أخفاها برقوق لكي لا يتمكن أحد من تحديد موقعه بدقة، وطلب من أحد أمرائه أن يذهب إلى دار المريض ويخبره أن السلطان سيزوره، واقترب الموكب بالفعل من المنزل، ويُقال إن امرأة كانت تقف على سطح منزل قريب، قامت بإلقاء إناء فخاري كي تلفت الانتباه إليها، وكانت سعيدة الحظ بدورها؛ لأن الحرس لم يعاجِلْها بسهم جزاء وقاحتها، وعندما نظر برقوق إليها حذرته من الدخول؛ لأن المماليك يريدون به الشر، وزاد السلطان سرعة فرسه وتجاوز الدار، وصار بينه وبين بابها سدٌّ من الحرس، وخرج آلي باي و ٤٠ مملوكًا يسعون

خلف برقوق الذي سارع بالدخول إلى القلعة، وتصدَّى لهم الأمراء والمماليك وقتلوا منهم من قتلوا، وقبضوا على المملوك الذى تسبب بـ" فراغة عينه" في الفتنة، وكان قد قاتل فى ذلك اليوم قتالاً شديدًا، وهو يعيش حلم التخلص من السلطان وأعوانه، لا ليثأر لنفسه بل ربما لأن طريقه إلى الجارية التي فتنته سيصبح مفتوحاً، لكنه لم يدرك أنه يكتب نهايته، فقد أمر السلطان بقتله، ولم يُطْعَنْ أو يُذْبَحْ فقط، بل تمَّ تقطيعُ جسده بالسيوف، بعد أن بالغ الأمراء في مجاملة السلطان بدموية مُفْرِطَة، أما آلي باي فاختبأ في مُستوقد أحد الحمامات حتى أُلْقِيَ القبضُ عليه بعد ساعات وسُجِنَ بالقلعة. أسهم الحادث في تغييرات جوهرية، ورغم أنها لم تكن أول محاولة اغتيال يتعرَّضُ لها السلطان، فإنها ألقت بذور الشك في قلبه، وغيَّر الكثير من عاداته، ولم يعد يخرج من القلعة كثيرًا حتى مات. لكنه كان كل فترة يقبض على أحد كبار الأمراء ممن يشغلون مناصب مهمة في الدولة بتهمة المشاركة فى مؤامرة آلي باي!

وتتميز المِئذنة بأنها تضم أقدم نموذج لتزيين المآذن بالرخام، فقد كان المعتاد أن يُسْتَخْدَمَ الحجرُ الملونُ في المآذن السابقة. وتجتذب نقوش القبة وجمال الفسقية أعين الناظرين، لكن لا بدَّ أن يُدرك الزائر أن جانباً لا يُسْتَهانُ به من هذه

العناصر المعمارية- لا تعود لزمن البناء، فقد لحق الدمار ببعض الأجزاء، مما دعا لجنة حفظ الآثار العربية لترميمها، ولم تكتف بإصلاح الرخام والنجارة والأسقف، بل قامت في ١٨٩٣م بإعادة إنشاء القبة الكبيرة اعتمادًا على صورة قديمة لها، وبعد أكثر من قرن شهدت المدرسة أعمال ترميم أخرى لكنها كانت أقرب للصيانة. وكالعادة لم تجتذب المدرسة عشاق التراث فقط، بل فتحت شهية اللصوص، فتعرَّضت للسرقة مرتين خلال عامى ٢٠١٢م و ٢٠١٤م، وفُقِدَتْ مشغولاتٌ نُحاسيةٌ من مِصراعي بابها.

عندما مات الظاهربرقوق، أفاض ابن إياس في ذكر مزاياه، فمدح حزمه وصرامته ومكره وخبرته، لكن العبارات التالية استوقفتني: " لا يكاد يُعجِّل في الكثير من أموره، بل يتروى في الشيء المُدَدَ الطويلة"، وهي سمات تتعارض مع ما ذكره ابن إياس نفسُه في كتابه" بدائع الزهور"، حيث تعاقبت حكاياته عن عزل كبار المسئولين بتهمة الفساد، وكان المعزول يُسَلَّمُ لأمير غيره فيتولى تسميرَه وعصره وتعريضه إلى" كوكتيلات" مُختارة من التعذيب حتى يُقِرَّ بما يُخبئُهُ من أموال، وكان الأمر يكشف عن شبكات أشبه بالعصابات؛ حيث يتضح أن الأمير المقبوض عليه قد أخفى أمواله عند أصدقائه ومماليكه، وأحيانًا

فِي أوانٍ فُخَّارية كبيرة مدفونة، لكن حيلته سرعان ما تنكشف ويتمُّ مصادرةُ مئات الآلاف من الدنانير فى كل مرة. حتى الآن لا يوجد ما يتعارض مع كلام ابن إياس، لكنه أكد في مرات عديدة أن السلطان قرر بعد فترة إعادة المغضوب عليه إلى منصبه وعزْل من خَلَّفَه! فلماذا العزل ثم العودة؟! إلا إذا كان ابن إياس يرى ذلك مكراً من الحاكم الذي يعيد المسئول ليجمع المزيد من الأموال على حساب مواطنين سبق أن هللوا لعزله من منصبه، ثم يعاود لعبة التعذيب والتجريس ومصادرة الأموال. إنه استثمار للفساد، بهدف زيادة حصيلة السلطان من الأموال، لكنه للموضوعية كان يُنفق الكثير على الفقراء، فيهللون له بالدعاء، وقد أنساهم الشِّبَع المؤقت أن جوعهم أصلًا بسبب الفساد!!

السلطانُ" تكدير"!

يأتى المملوك إلى مصرَ وهو لا يحلم سوى بالستر، ثم يفتح الله عليه فيصل إلى الحكم، ليحاول بعدها إغلاق باب تداول السلطة باللجوء إلى التوريث، دون أن يدرك أنه يكتب بذلك نهاية أبنائه، ويُفجِّر طوفان الدم. لهذا لم يكن غريبًا أن يُوصِي الظاهر برقوق بالحكم من بعده لابنه الناصر فرج، على أن يخلفه أخواه عبد العزيز ثم إبراهيم. كان عمر فرج ١٥ عاما؛ لهذا تولَّى الوصاية الأمير أيتمش، وبعد فترة انفرد الناصر بالحكم، ثم شعر بتآمر المماليك عليه فهرب من

القلعة، وتولَّى أخوه المنصور عبد العزيز وعمره نحو عشر سنوات، ولأن الحكام مجرد دُمَى فقد انقلب عليه عدد من الأمراء، أو بالتحديد ثاروا على الأمير بيبرس الوصي عليه، وعادوا بالسلطان الهارب للحكم، فلم يقض عبد العزيز بالسلطنة سوى شهرين وعشرة أيام. وعندما عاد الناصر فرج إلى منصبه، أكرم أخويه فأمر بأن تكون إقامتهما مع والدتيهما فى الإسكندرية، وخصص لهما دخلاً سَخِيًّا للإنفاق منه، لكن الغريب أنهما ماتا بعد فترة وجيزة، بفارق ساعات، مما جعل البعض يرجحون أنه أمر بتسميمهما.

كان فرج ملكاً قاسيًا لدرجة أنه كان يأمر كل ليلة باستعراض مماليك أبيه، ويختار بعضهم ويلقيهم على الأرض ويقوم بذبحهم بيده مثل الخرفان، ويقال إنه ذبح منهم نحو ألفين! والغريب أن السلطان المؤيد شيخ التمس لفرج العذر رغم أنه تمرد عليه وثار ضده عندما كان ما يزال نائبًا في الشام يحمل اسمه القديم الأمير شيخ المحمودي، فقال المؤيد:" ما أحد من الملوك صبر كصبر الملك الناصر على مماليك أبيه، فإنه ما كان يقتل الواحد حتى يكون سامحه مرارًا عديدة، وهم يغدرونه ولم يرجعوا". لم يكن الرجل مُبتلى بمماليكه فقط، بل خانته زوجته خوند بنت صُرُق مع رجل مُهم في الدولة، اسمه ابن الطبلاوي،

وبلغ السلطان أنها استغلت غيابه ذات مرة ونزلت من القلعة وباتت عند الرجل. قطع السلطان رأس زوجته، واستدعى ابن الطبلاوي إلى القلعة، وأحضر الخدم صينية مغطاة، اعتقد الضيف أنها تضمُّ وجبة للاحتفاء به، وكشف السلطان فرج الغطاء ففوجىء ابن الطبلاوي برأس الخوند يُطِلُّ عليه! سأله السلطان: أتعرف هذه؟ سكت الأخير، وربما لم ينتظر فرج ردَّه، حيث قام وقطع رأسه بنفسه، وأمر أن يُدفنا في قبر واحد!

كان هذا السلطان عربيدًا ظالمًا، عاش الشعب حياة كرب في عصره، والغريب أن اسمه الأصلي كان بمثابة نبوءة، فعندما رُزِقَ به والدُه أسماه" بلغاق"، وهي كلمة تعني" تكدير"! وبعد عودة السلطان برقوق إلى الحكم في المرة الثانية غيَّر اسمه وجعله فرج. وجاءت نهايته وَفْقَ سيناريو شبه معتاد، فخلال زيارة الناصر فرج لدِمَشْقَ تعرَّض لانقلاب، وسُجِن ببرج قلعتها، ثم أرسل زعماء الانقلاب إليه أربعة مماليك قتلوه بالخناجر وألقَوه في مزبلة خارج المدينة. وتوافد الناس عليه يشاهدون جثته ويعبثون بلحيته، ولم يكن عمره عند وفاته سوى أربعة وعشرين عاماً؛ قضى منها ثلاث عشرة سنة وبضعة شهور فى السلطنة، ضاعت فيها حقوق الناس وساد الظلم في حقِّ الرعية، والأهم أن

فترته شهدت مذابح تيمورلنك في العديد من المدن الإسلامية القريبة، لكنه لم يصل إلى مصر لا لقوة حاكمها، بل لأسباب أخرى.



مسجد المؤيد شيخ

" المؤيدُ شيخُ"

الصلاةُ خيرٌ منَ السجنِ!

كان المرور بجوار المكان[١٢] في القرن الرابعَ عشرَ يبعث على الخوف بالتأكيد، فالسجن الملاصق لباب زويلة يحمل ملامح المنشآت المشابهة من حيث القدرة على إثارة الخيال بقصص القابعين بداخلها؛ ربما حتى الموت، لكن لحسن الحظ أصبح أحد الأمراء نزيلا في سجن "خزانة شمائل"، ونتيجة المعاناة نذر أن يهدمه ويُشَيِّدُ مسجدًا مكانه إذا انتهت محنته، ومثلما أنقذ نذر شبيه مسجد ابن طولون، ساهم النذر الجديد في ظهور جامع المؤيد شيخ، ليصبح فخر مساجد دولة المماليك الجراكسة.

من الذي سجن الأمير شيخ المحمودى؟ اختلفت الأقوال. هناك من قال إنه الأمير منطاش الذي انقلب على السلطان برقوق، بينما أكد آخرون أن من ألقاه في السجن هو الناصر فرج بن برقوق. كانت بدايات الأمير شيخ عادية. اسمه باهت وسط أمراء تميزوا بالمشاكسة التي تصل إلى حد التمرد. يعلو شأن البعض وتتمُّ الإطاحةُ بآخرين بينما بقي هو في الظل، ربما لأنه كان ما يزال في طور النمو السياسي، ولو ثبت أن منطاش هو الذي سجنه فعلى الأرجح أن ذلك لم يكن

---

[١٢] باب زويلة– الدرب الأحمر

نابعًا من خطر يُمثِّلُه، بل من باب الوَقاية باعتباره تابعًا لبرقوق. بعد عودة برقوق للحكم بدأ صعود شيخ المحمودي الذي أرى أن رحلة صعوده تمَّت عَبْرَ الترقيات المعتادة بحكم جهده الروتيني، لكن الأمير الخامل سرعان ما تبدَّل في عهد الناصر فرج، ولاءً لأمير أكبر منه يدين له بالفضل، وكان السلطان فرج قد غضب على هذا الأمير الكبير ففرَّ منه إلى الشام، حيث كان شيخ المحمودي نائباً لها، وسرعان ما أصبح الأخير عضواً فاعلاً في محاولات قلب نظام الحُكم. فعلها مرة واعتذر عندما واجه معسكره الهزيمة، ثم عاد ليشارك في كتابة شهادة وفاة حكم الناصر، لا يوجد في هذا السياق مساحة زمنية تجعله حبيس السجن.

بعدها تولى الخليفة العباسي السلطنة في واقعة لم تتكرر في تاريخ الحكم المملوكي، وسرعان ما انقلب عليه وتولَّى الحكم، ليخسر واحداً من أعز أصدقائه، هو نوروز الحافظي نائب الشام الذي رفض ما حدث، واستمرَّ يدعو للخليفة العباسى المعزول من السلطنة! وانتهت القصة لصالح السلطان المؤيد شيخ، بعد أن هزم صديقه وقتله، وطاف رأسه في شوارع القاهرة!

أمتار قليلة تفصل مدخله عن باب زويلة، يقف على يسار من يعطي ظهره للبوابة التاريخية. وَاجِهَتُهُ تضمُّ عددا من المحال التي يتطلب الوصول إليها نزول

عدة سلالم؛ لأنها أقل من مستوى الشارع، بينما يتطلب دخول المسجد ارتقاءَ سلالم أخرى تصل بالزائر إلى بابه الخشبي الضخم، ثم يتجه يمينًا عَبْرَ باب خشبي أقل ضخامة، فَيَسَارًا ليمضي في ممرٍّ محاط بجدارين عاليين، ضوءُه خافت نسبياً لا يلبث أن يتزايد مع الاقتراب من بابٍ أصغرَ على اليسار في نهاية الممرِّ. عبوره يجعلك على بُعْدِ خُطوات قليلة من صحن الجامع. رحلة لا تستغرق سوى لحظات، لكنها كافية لإجراء عملية غسيل للروح تكتمل مع دخول الصحن الذي تحيطه عمارة بديعة، وتتوسطه فسقية للوضوء؛ بعض صنابيرها تحتاج إلى صيانة! بينما أقيمت مِئذنتاه فوق باب زويلة، ورغم أن أعمال التجديد التي شهدها المكان على مرِّ العصور أخفت قدرًا هائلًا من ملامحه القديمة، فإنه ما يزال يحتفظ بجمالياته التي فتنت المقريزي، حتى كتب عنه:" فهو الجامع الجامع لمحاسن البنيان، الشاهد بفخامة أركانه وضخامة بنيانه أن مُنْشَئَهُ سيد ملوك الزمان، يحتقر الناظر له عند مشاهدته عرش بلقيس وإيوان كسرى أنوشروان". الغريب أن المقريزي عاد ليصف" سيد ملوك الزمان" بأبشع الصفات بعد موته، فيؤكد ابن إياس أنه" حطَّ عليه بمساوىءَ كثيرةٍ". بدأت من انتقاد ملامحه الشكلية، وامتدَّت إلى ممارساته، حيث وصفه المقريزي بأنه كان

يتجاهر بالمعاصي، وأكل الحشيش، وكان كثيرالمصادرات لأرباب الدولة، وكان عنده قسوة زائدة؛ إذا ظَفَرَ بمن له ذنب لا يرحمه!

بعد ثلاث سنوات من تولِّي المؤيد شيخ حكم مصر اشترى قيسارية الأمير سنقر الأشقر المجاورة للسجن (القيسارية عبارة عن سوق كبير للملابس)، واشترى عدة دور وحارات، وقام بهدم كل ذلك، وبدأ حفر الأساس عام ١٤١٥م، وخلال أعمال التشييد نقل الباب النُّحاسى الكبير الخاص بمدرسة السلطان حسن، واستخدمه في مسجده، لكنه في المقابل جعل قرية قها وَقْفًا لجامع السلطان حسن، ويقال إنه اشتراه مع تنور نُحاسيٍّ بخمسمائة دينار، والتنور هو مصدر إضاءة يشبه" النجفة"، لكن الشراء لم يكن السبيل الوحيد للحصول على مُكوِّنات المسجد.

يعتبر المحراب من أعظم محاريب العصر المملوكي، فهو ضخم، ويبلغ ارتفاعه أربعة أمتار، وزخارفه جذابة متعددة الألوان، وتمَّ تركيبُ رخامه بشكل بالغ الدقة، ويظل الرخام شاهداً على الظلم عندما يُرْتَكَبُ تحت عباءة الدين، فقد أخذ رجال المؤيد يهاجمون بيوت الأعيان بحثاً عن الرخام، وكان صُنَّاعُهُ يرافقون واليَ القاهرة في هجماته، ويقلعون الرخام طوعاً أو كرهاً، حتى إن بيوتاً

كثيرة تعرَّضت للتخريب، فضلًا عما تمَّ سلبُه من مساجدَ أخرى، وعبَّر أحد الشعراء عن ذلك ببيتين من الشعر يمزجانِ السخرية بالهجاء:

بنى جامعاً لله من غير حِلِّـــــــهِ فجاء بحمد الله غير موفق

كمُطعمة الأيتام من كدِّ فرجها فليتك لا تزني ولا تتصدق

السلطانُ يقتلُ ابنَه

في عام ١٤١٩ لم يكن البناء قد اكتمل، لكن المؤيد شيخ قام بتعيين المُدرسين للمذاهب الأربعة، وكان يحضر دروسهم، كما أمر بملء فسقية الصحن بالسكر واحتفل بافتتاحه. ربما كان يشعر بأن الضريح سيدخل دائرة الخدمة قبل الانتهاء من تشييد مسجده بالكامل، وبالفعل تُوُفِّيَ ابن السلطان ليسبقه إلى الضريح الذي أعدَّه قرب المدخل. كانت خطبة وداع الأمير الشاب إبراهيم مؤثرة، تساقطت معها دموع المؤيد شيخ، لتمتزج تعبيرات الحزن بالندم، فلم يكن يعاني فقط فجيعة الأب المكلوم في ابنه، بل إحساس القاتل الذي أفاق بعد فوات الأوان. كان إبراهيم فارساً شجاعاً، أخمد ثورة أهالي مدينتي طرسوس وأدنه، بعد أن فشل أمراء الشام في التعامل مع الثائرين، فأصبح حديث العامة، ورأى الأمراء أنه أحقُّ بالحكم من والده الذي وصل إلى سن الشيخوخة وبدأ يعاني المرض. سارع ابن البارزي كاتب السر بإخبار السلطان، وبدأ يوسوس

له بضرورة التخلص منه، وتحت تأثير شهوة الحكم تمَّ دسُّ سم بطيء المفعول في حلوى تناولها الأمير المغدور به، وتدريجيًّا بدأ المرض يشتد به. هنا تمَّ نقلُه إلى منطقة بولاق التي كانت تُعْتَبَرُ وقتَها منتجعَ كلِّ مريض في بيت السلطان. الغريب أن إبراهيم أقام ببيت ابن البارزي في بولاق، دون أن يخطُر بباله أنه المُحرِّض على قتله، فجأة طغت مشاعر الأبوة على السلطان، فطلب من الأطباء علاج ابنه، لكن السم كان قد فعل فعلته، وعندما اشتد المرض بإبراهيم حُمِلَ على الأكتاف من بولاق إلى القلعة، حيث تُوُفِّيَ ونُقِلَ إلى مسجد المؤيد، ليُدْفَنَ بحضور والده، وقد آلمت الواقعة المصريين، فخرجوا عن صمتهم المعتاد، وكثُر كلامهم المُنْتَقِدُ للسلطان، حتى إنهم دعَوا عليه علانية في وجهه، ولم يلبث أن قام الأخير بدسِّ السم لمُحرِّضه ابن البارزي، ثم تُوُفِّيَ السلطانُ نفسُهُ بعد شهور قليلة.

ملكٌ في حجرِ المُرضعة!

حاول السلطان الحفاظ على عرشه، فأضاع الحكم من أسرته كلها؛ لأن رحيل خليفته القوي إبراهيم جعل الحكم ينتقل بعد شهور إلى أحمد الابن الثاني للمؤيد شيخ، وكان رضيعا عمره سنة وثمانية أشهر، ويبدو مشهد التنصيب هزلياً، وصفه ابن إياس قائلا:" فأحضروا له خلعة السلطنة وقد فُصِّلَتْ على

قَدِّهِ وألبسوها له، وتلقَّب بالملك المُظَفَّر، فأركبوه فرس النوبة، وهو يزعق من البكاء، ومشت قُدَّامَهُ الأمراء حتى دخل القصر الكبير، فجلس على سرير المُلك، وهو في حِجر المرضعة ترضعه، فباسوا له الأرض، وكانت العادة القديمة إذا تسلطن سلطان وجلس على سرير الملك- تُدَقُّ له الكوسات (آلات نُحاسية) في القصر، فلما جلس في حِجر المرضعة، ودقت الكوسات على غفلة، اضطرب اضطراباً شديدًا وأُغْمِي عليه، وحصل له في الحال حَوَلٌ في عينيه من الرجفة"!! أصبح الأمير ططر هو الحاكمَ الفعليَّ، ورغم أنه المتحكم فى مقاليد الدولة باعتباره وصياً على السلطان، فإن منصب السلطنة كان أكثر إغراء. بدأ يُعِدُّ خُطته بدأَب، فتزوج خوند سعادات أرملة المؤيد شيخ وأم السلطان الرضيع، ثم أطاح بالمُظَفَّر أحمد بعد سبعة أشهر وواحد وعشرين يوما وتولَّى الحكم، فلما رأت سعادات ما فعله بابنها قامت بتسميمه، ولم يُكْتَبْ لططر أن يفرح بالمنصب، حيث قضى فيه أربعة وتسعين يومًا فقط، ثم أنهت المرأة حياته. عمومًا لا يُعَدُّ تصرف الأم مُستغربًا؛ فغريزة الأمومة تمنح المرأة قوة تصل إلى مرحلة القتل ثأراً لابنها، فضلًا عن أنها كانت ابنة أميرٍ قويٍّ مما منحها قوة داخلية استثنائية، لكن من هذا الأمير؟ الغريب أن ابن إياس نفسه نسبها لاثنين

من الأمراء، ففي تعريفه بالسلطان الرضيع أكد أنها ابنة الأمير صرغتمش الناصري(هاهو التاريخ يتواصل!)، لكنه بعدها بصفحات قليلة كان يتحدث عن السلطان ططر الذي انقلب على ابنها، فذكر أنها ابنة سودون الجركسي!!

بعد وفاة السلطان ططر تولَّى ابنه الطفل الحكم، ولم يستمر به سوى ثلاثة أشهر فقط، ثم خلعه الأشرف برسباي الذي كان وصيًّا عليه، فكان الجزاء من جنس العمل. الغريب أن السلطان برسباي أشفق على ابن ططر فلم يرسله إلى سجن الإسكندرية كما جرت العادة، وتركه يعيش في دور الحريم مع أمه، كان عمر السلطان المعزول أحد عشر عاما، واستمرت عناية برسباي به حتى أنه زَوَّجَه ابنة أحد الأمراء بعد فترة، لكن الغريب أن برسباي لم يتعامل مع السلطان الرضيع بالحنان نفسه، فأمر بنفي المُظَفَّر أحمد بن المؤيد شيخ إلى الإسكندرية، حسبما ذكر ابن إياس الذي عاد ليذكر في موضع آخر من" بدائع الزهور" أن الرضيع نُقِلَ إلى سجن الإسكندرية ولم يتم نفيُه فقط، ليتفتح وعيه على جدران لا يعرف سبب حبسه بها، إلى أن تُوُفِّيَ بالطاعون وعمره ١١ عاما، ونُقِلَ جثمانُه إلى القاهرة ليُدْفَنَ بجوار أبيه وأخيه تحت قبة المؤيد شيخ. يُمكن تبريرُ تناقض معاملة برسباي للطفلين أن ابن ططر لم يكن مصدر خطر، أما ابن السلطان

القوي المؤيد شيخ فيُمكن أن يتحول إلى تهديد قويٍّ في المستقبل، بفعل مماليك والده الذين قد يراهنون عليه في المستقبل.

هجومٌ بالمدفعية

في عام ١٦٦٥م فقد المسجد الكثير من عمارته الأصلية نتيجة تعرضه لقذائف المدافع على مدى نهار كامل، وتروي القصة التاريخية أن بعض الطغاة من طائفة تُدْعَى الزُرب تحصَّنوا به، واستفتى عمر باشا حاكم مصر وقتَها العلماءَ، فأجازوا له ضربه وإعادة بناء ما يتهدَّم منه. على الفور أمر الوالي العثماني عساكره بالزحف عليهم ومعهم ١٢ مدفعاً، وبدءُوا قصفهم حتى استسلموا، وتمَّ إعدامُهم ومصادرة أموالهم. وطائفة الزُرب كانت مقيمة في الشام بالأساس، وزاد فساد أفرادها، فَشَنَّ السلطان العثماني حملة عليهم قتلت الكثيرين منهم وفر آخرون إلى مصر، وتمادَوا في طغيانهم حتى إنهم كانوا يفرضون إتاواتٍ على التجار إلى أن انتهى أمرهم في المواجهة السابقة. بعدها قام أحمد باشا والي مصر بإعماره جزئياً، لكن المسجد لم يعد لحالته الأصلية، فبقايا الجامع الأصلي لا تزيد على إيوان القبلة والواجهة الرئيسية.

في بدايات القرن التاسع عشر زار المعماري والمستشرق الفرنسي باسكال كوست المسجد، وترك رسوماً بديعة ما تزال مُتداوَلة حتى الآن تُظْهِرُ عبقرية معماره،

لكن المفارقة أن الرسوم لا تُعبِّر عما رآه كوست فعلياً، بل تضمُّ تصوُّرَهُ لتخطيط الجامع الأصلي، وهوما اعتمدت عليه وزارة الأوقاف عام ١٨٧٠م، عندما قامت بإعادة بنائه. ويشير الدكتور فهمي عبد العليم في كتابه عن المسجد إلى أن أخطاء عديدة شابَتْ عملية الترميم، حيث اختلفت طُرُز الزخارف والعناصر المعمارية الجديدة، عما هو موجود بالواجهة الرئيسية، كما اختلفت نوعية الأحجار، ولم يتم تحديدُ مواقع فتحات الشبابيك بدقة، وقد رصدت لجنة حفظ الآثار العربية هذه الأخطاء، في تقرير أعدته، مع نهاية القرن التاسع عشر، أكدت فيه عدم دراية المُرممين بالتخطيط الأصلي للجامع، ولا بالفن العربي، وأضافت أن الأحجار والموَن المستخدمة لم تكن جيدة، فضلا عن إضافة جدران وحجرات لم يكن لها وجودٌ في التصميم الأصلي. ثم قامت اللجنة نفسُها عام ١٨٩٣م بترميم المدخل الرئيسي والباب النُّحاسي، وقبة الوضوء بالصحن، وأكملت المِئذنتين، وأعادت المحراب إلى حالته الأصلية. وهو تقريبًا بحالته نفسها منذ ذلك التاريخ.

لم تشفع له ضخامته إذن في مواجهة البشر، فبعد أن فتنهم بجاذبيته لفترة بدءوا فى الاجتراء عليه. قصفوه بالمدافع اعتماداً على فتوى دينية، ثم أهملوه. وأخيراً

دخله أحدهم في عام ٢٠١٩م لا ليصلي بل ليسرق جزءً من حشوة منبره. الحديث عن الحُرمة لا يجدي مع لص، رغم أن مؤسسه حاول أن يراعيَ الحرماتِ قبل قرون، ربما ليتطهَّر من الظلم الذي شهدته عملية التشييد، فأمر الخطباء عام ١٤١٦م بأن ينزلوا درجة على المنابر عندما يدعون له يوم الجمعة؛ لأنه من غير اللائق أن يُذْكَرَ اسمه على الدرجة نفسها التي تشهد ذكر اسم الله ورسوله عليه الصلاة والسلام.



جامع البنات

" جامعُ البناتِ"

البحثُ عن عريسٍ أطاحَ بالمسئولِ الظالم

ذات يوم كان الإقبال عليه منقطع النظير، لم يكن ذلك بسبب إطلالته المُبهجة على مياه الخليج[١٣]، ولا قناعةً بوليٍّ يرقد في إحدى زواياه. كان السبب غريباً بالنسبة لمكان تمَّ تشييدُه للصلاة وتدريس علوم الدين، فقد كان قِبلة للراغبات في الزواج. ومع الوقت تراجع الاسم الأصلي، وتحولت المدرسة الفخرية إلى جامع البنات، وهو الاسم المُثْبَّتُ على واجهته حتى الآن!

قبل قرون كانت الفتيات تتزاحمن بأركانه قبل صلاة الجمعة، فإذا بدأت الصلاة أخذت كلٌّ منهن وضع الاستعداد، ومع السجدة الأولى في أول ركعة تنطلقن بين صفوف المُصلين، من ناحية إلى الأخرى باتجاه باب الخروج، وكل منهن على ثقة بأن الرحلة القصيرة بين المصلين في هذا التوقيت ستجلب لها فارس الأحلام، وربما تغالي إحداهن فتتعدد جولاتها، المهم أن تنال مُرادَها. كان أول من رصد هذه العادة الغريبة هو الرحالة عبد الغني النابلسي خلال زيارته لمصر فى نهايات القرن السابعَ عشرَ. اختفت العادة وتركت للمسجد اسمه الغريب دون سبب منطقي لانتشارها. في هذه الحالة تظهر الحدوتة الشعبية، لتستكمل

---

[١٣] شارع بورسعيد بالقرب من شارع الأزهر

السطور التي اختفت من التاريخ بفعل الزمن. فتذكر أن منشيء المسجد كان له سبع بنات عذارى خطف الطاعون أعمارهن في توقيت متقارب، وأنهن دُفِنَّ بهذا المسجد، فعرفه الناس باسم جامع البنات، ثم بدأت بركتهن تحُلُّ على من فاتها قطار الزواج! القصة غير دقيقة، فالثابت أن مؤسس المسجد وحده هو الذي دُفِنَ بالمكان، أما قصة بناته فغابت من صفحات التاريخ، وربما يكون مبتدعُ هذه التقليعة هم العاملين بالمسجد في زمن ما، ففي هذه الأحوال يصيبهم من الحب جانب، بعطايا الراغبات في احتلال موقع متميز، يسهم في تحقيق مُرادَهن بشكل أسرع، لا يوجد ما يؤكد هذا الاحتمال، لكنه افتراض شخصي يعتمد على ممارسات نراها في واقعنا الحاضر.

على شاطيء الخليج المصرى اختار الأمير فخر الدين عبد الغني بن عبد الرزاق موقع مسجده الذي اكتمل بناؤه عام ١٤١٨م. الداخل من بابه في عصرنا يتجه يميناً ثم يسارًا في ممر طوله عدة أمتار، ثم ينحرف ليجد نفسه في صحنٍ مكشوفٍ محاطٍ بأربعة أماكن مسقوفةٍ من جوانبه الأربعة، يُعْرَفُ كلٌّ منها علميًا باسم الإيوان. وشهد المسجد أعمال الترميم بعد أن جار عليه الزمن، كان أولها في منتصف القرن التاسعَ عشرَ، ومن بين ما تضمنه بناء المِئذنة من جديد.

كان والد الأمير فخر الدين وزيراً، أحاط الابن برعايته، فبدأ رحلته مع المناصب العليا مبكراً، وفي سن السادسةَ عشرةَ تمَّ تعيينُه واليًا لمنطقة اسمها قطيا، وهي موقع لفحص وثائق العابرين على الحدود المصرية وتحصيل رسوم منهم، وبعدها بعشر سنوات عُيِّنَ كاشفًا للشرقية(أي محافظا لها)، وفي عهد المؤيد شيخ تمَّ تعيينُه كاشفًا للوجه البحْري كله، ثم استداراً (المشرف على بيوت السلطان، وهو منصب يشبه كبير الياوران في عصرنا الحديث)، وفي عام ١٤١٨م أصبح وزيرًا وعمره يزيد على ٣٦ عاما بقليل ومات في العام نفسه.

ويبدو أن أول عمل له في موقع لتحصيل الرسوم أسهم في تشكيل شخصيته، فقد وصفه المؤرخون أنه كان جبارًا في تحصيل الأموال حتى إنه جمع في ثلاثة أعوام مالا يجمعه غيره في ثلاثين سنة! لكن عمره القصير شهد تحوُّلًا فى سياسته، حسبما يذكر حسن عبد الوهَّاب، فيشير إلى أن سيرته أصبحت حسنة منذ تولَّى منصب الاستدار، لكن هذا القول غير دقيق، حسبما أوردته الأحداث التي رصدها المؤرخ ابن إياس. فبعد شهور قليلة من تولِّيه المنصب، بذل فخر الدين كل جهده ليُثبت كفاءته في تحصيل الأموال بكل الوسائل، وبمجرد أن غادر السلطان المؤيد شيخ القاهرة إلى دِمشقَ، بدأ الاستدار حملته التعسفية، فأظهر

المظالم وشتت الفلاحين وخرَّب غالب البلاد، وجمع الأموال تحت تهديد السيف. وَفْقًا لمعيار الإيرادات فإن الرجل يستحق مكافأة؛ لأن كل ما جمعه يصبُّ في خزائن السلطان، لكن هناك أمرًا غامضًا يوحي بشبهة فساد، فبعد شهور شعر بالخوف من المؤيد شيخ، رغم أنه ما يزال خارج مصر يؤدب المُتمردين عليه، وفجأة فرَّ الاستدار إلى بغداد بعد أن شعر بتهديد مُحتمَل؛ ربما وشى به أحدهم، خاصة أن أحد كبار الموظفين حاول الحصول على المنصب بعد فرار صاحبه، لكن السلطان العائد إلى مصر قرر تعيين استدار سابق كان قد أطاح به ليُعيِّن فخر الدين الذي عاد إلى القاهرة بعد عام من هروبه، وعقب شهور كان قد استعاد منصبه.

اختفى ذكره من سياق الأحداث لبعض الوقت، ثم انتعشت قسوته من جديد عندما خرج السلطان المؤيد شيخ إلى حلب، وبدأ الرجل جولة أخرى من الظلم الفاحش، وكان أهل الصعيد هم المستهدفين هذه المرة، يقول ابن إياس: " سرح إلى الوجه القبلي، فاحتاط على أموال الناس ومشايخ العُرْبان، فأخذ من الأبقار ستة آلاف رأس، ومن الأغنام ثمانية آلاف رأس، ومن الجمال ألف جمل، ومن قطر السكر ألف قنطار، ومن الرقيق ألف رأس، وحصل منه في غياب

السلطان للناس الضرر الشامل". كان هذا خلال العام السابق على وفاته مباشرة، أي أن سيرة الرجل لم تتحسن، ولا المنصب الرفيع قلل من ظلمه. ويبدو أنه حظِيَ برضا السلطان هذه المرة؛ لأنه حقق الإيرادات المستهدفة مع تقليل ما يستولي عليه لنفسه، فأصبح وزيرًا بالإضافة إلى منصبه، لكن المنصب الجديد لم يستمر طويلًا بعد اختيار السلطان لوزير آخر، وبقي فخر الدين في الاستدارية فقط.

خلال أربعة أعوام قضاها في منصبه الرفيع- كان قد استكمل تشييد مسجده الذي أُفْتُتِحَ وهو يعاني مرض الموت، وبالفعل رحل بعد افتتاح المسجد أبوابه بفترة قليلة دون أن يشفع له ذلك عند ابن إياس الذي كان عادة ما يتناسى ظلم الأمراء عندما يذكر ما بنوَه من مساجدَ، فكتب عنه قائلا:" كان ظالمًا غشومًا، جدَّد من المظالم بالديار المصرية ما لا يُسْمَعُ بمثله".

فى فترة إنشائه جذب الموقع المتفرد للمسجد الأمراء والأثرياء، فشيَّدوا قصورهم بالقرب منه، وعلى امتداد الخليج المصري. لكن الزمن بدَّل معالمَ كلِّ شيءٍ، فقد تمَّ ردمُ الخليج، وحلَّ شارع بورسعيد مكانه، كما اختفت القصور

وظهرت عمارات لا تعترف بالجمال، زاحمت المسجد حتى تلاحمت إحداها مع جانب من جدرانه.



مسجد قراقجا الحسنى

" قراقجا الحسني"

جامعُ الأستاذ الأسود

هدوء ظاهري يحيط بالمكان[١٤]. يخفي تفاصيل مرحلة تاريخية ملتبسة، كان سعيد الحظ من يموت فيها على فراشه، فالمؤامرات كانت مسيطرة، أطاحت بسلطان وجاءت بآخر، لم يلبث أن تعرَّض لمحاولة إقصاء خلقت حالة انقسام بين المماليك، لكن مؤسس المسجد اتسم بالذكاء، ووقف مع الطرف الذي انتصر، لكنه لم يكن مغامرًا، فظل أقل شهرة من معاصريه.

في منتصف شارع درب الجماميز تقريبًا يقف مسجد قراقجا الحسني، يئن من الإهمال، ويعاني الغربة، رغم أن المنازل تحاصره من كل جانب. منذ فترة فقد قلبه الصلة بالبشر، بعد أن أُغْلِقَتْ أبوابُه ولم يعدْ يستقبل المصلين نتيجة هجوم المياه الجوفية.

يبدو اسم مؤسسه غريبًا، لكن معناه أكثر غرابة، فهو مُكوَّن من مقطعين: قره بمعنى أسود، وقجا بمعنى أستاذ، لهذا ذكره بعض المؤرخين باسم قراقجا. عاصر عددًا من السلاطين، وترقَّى في المناصب حتى أصبح في عصر السلطان جقمق رأس نوبة النوب، وهو منصب من المناصب الرفيعة في الجيش. شارك

---

[١٤] درب الجماميز- السيدة زينب

في حسم صراع كبير حدث بين السلطان جقمق والأتابكي قرقماس؛وقد أشرنا إلى جانب منه في موضع سابق، ورغم أن قرقماس كان سببًا أساسيًا في وصول السلطان للحكم، فإنه كان يطمع في المنصب لنفسه، ودفع بجقمق فقط ليُمهِّدَ له الطريق. وفجأة ثارت فتنة انقسم فيها الأمراء، لكن الغالبية وقفوا مع السلطان، ومنهم قراقجا الحسني، وبعد أحداث مثيرة تمَّ القبضُ على قرقماس مختبئًا في الجزيرة الوسطى(الزمالك).

بعدها بفترة أجرى السلطان تغييرات شملت ترقية قراقجا لدرجة أمير آخور كبير، وناظرًا على المدرسة البرقوقية، وكانت أول مهمة له في هذا المنصب هو الخروج على رأس حملة لقتال نائب الشام الذي تمَّ خلعُه من منصبه، فتلاقى المعسكران في موقع يُسمى الخربة، لتدور موقعة عنيفة شهدت سقوط الكثير من القتلى، وهرب النائب المعزول إلى أن تمَّ القبضُ عليه بعد يومين، مختبئاً في إحدى قرى دِمشقَ. ولَمَّا علم السلطان بالقبض عليه أرسل إلى قراقجا طالباً أن يقتله، وبالفعل وصل رأسه إلى القاهرة، فتمَّ تثبيتُه على رمح ليطوف بالشوارع، قبل تعليقه على باب زويلة لعدة أيام. وبعدها بأسابيع وصل رأس أمير متمرد آخر هو نائب حلب، فمرَّ بالرحلة نفسها حتى استقر على باب زويلة، وكان

الأمير قد فرَّ بدوره عقب معركة مهولة كاد قراقجا أن ينهزم فيها، لكنه سرعان ما استعاد سيطرته، ليعود إلى مصر بعد انتصاره.

بعدها بأعوام خرج قراقجا على رأس حملة أخرى، لمواجهة فساد عُرْبان البحيرة، واستمر يقوم بمهامه بمهارة عسكري لا يطمع في الحكم، لهذا كان يتمُّ الاعتمادُ عليه غالباً في مواجهة المتمردين بالداخل والخارج، مما يعني أن هناك ثقةً عاليةً فيه، لضمان عدم اتفاق قائد الحملة مع المتمردين بدلًا من القضاء عليهم! اتسم الرجل بالشجاعة وأتقن الفروسية والرمي بالرمح، وبالتأكيد كانت هذه الصفات تتوافر في أمراء آخرين، لكن أهم ماميزه كان الوفاء للسلطان؛ لهذا استمر محل ثقة، حتى تُوُفِّيَ بالطاعون هو وابنه الأمير علاء الدين، بفارق ساعات عام ١٤٥٠م، وحضر السلطان جقمق الصلاة عليهما، وهو أمر لا يتكرر كثيرًا.

في عصرنا اختفت سيرة الرجل تمامًا، حتى أهالى الحي الذي يضمُّ مسجدَه يشعرون بصعوبة في نُطق اسمه، فاستبعدوه من حواراتهم، وابتكروا اسماً جديدا للمكان، هو" جامع بلا مِئذنة". إنها محاولة لوصف الحالة الفريدة، فالمسجد في ناحية والمِئذنة في ناحية أخرى، تفصل بينهما حارة "السادات"،

ومن أعلى يقطع الحارة معبر خشبي يربط بين التكوينين المعماريين، وكان وسيلة انتقال وحيدة للمؤذن الذي لم يعد في حاجة للترحال ٥ مرات يوميا، بعد انتشار مكبرات الصوت. ورغم أن الكثير من المتخصصين تعاملوا مع المِئذنة على أنها تخص المسجد، فإن الدكتور حسني نويصر، أستاذ الآثار الإسلامية، أكد في إحدى دراساته قبل سنوات أنها ليست له، بل كانت ضمن كيان آخر يضم مسجدا مُعَلَّقًا وسبيلًا.



جامع القاضي يحىً

" القاضى زينُ الدينِ يحيى"

مؤسسُ المسجد ليسَ قاضيًا

يحتل تقاطع شارعين من أكبر شوارع القاهرة[١٥]، هما الأزهر وبورسعيد. ويُفْتَرَضُ أن يجعله ذلك في بؤرة الاهتمام، لكن الواقع يُسْفِرُ عن مفارقة، فالعابرون عادة ما ينشغلون بالزحام عنه، في انتظار لحظة يتمكنون فيها من الانطلاق هربا من تكدُّس مروري مُزْمِن. ميلاد المسجد سبق ظهور الشارعين ببضعة قرون، فعند بنائه كان" بورسعيد" مجرى مائيا ممتدًّا هو الخليج المصري، مما فتح باب التأويلات، فهناك من رجَّح بناءه على جزيرة صغيرة وسط الخليج، بينما رأى آخرون أنه كان على أحد شاطئيه. أما شارع الأزهر فلم يكن قد ظهر إلى الوجود بعدُ، لكن ظهوره سيكون مؤثراً في تاريخ المبنى. كان طبيعياً أن ينال الجامع حُظْوة ارتبطت بنفوذ صاحبه؛ ذلك المصري الذي نجح في مزاحمة المماليك مناصبَهم، فاكتوى بنيرانهم بعد ذلك وصودرت أموالُه، والغريب أنه لم يشغل منصب القاضي إطلاقًا، ورغم ذلك أصبح المسجد معروفًا باسم القاضي زين الدين يحيى!

---

[١٥] تقاطع شارعي بورسعيد والأزهر

وُلد الرجل بمصرَ في نهايات القرن الرابعَ عشرَ الميلادي، وتدرَّج في المناصب حتى شغل منصبًا يطلق عليه" ديوان المفرد"، الذي يتولَّى الإنفاق على مماليك السلطان، وصار ناظرًا للإسطبل السلطاني ومحتسبًا للقاهرة. كانت وظيفة المحتسب واحدة من أكثر الوظائف سطوة، فصاحبها هو الحاكم بأمره في شوارع المدينة وأسواقها؛ يتعامل مع التجار والبائعين، ويفرض عليهم عقوباتٍ قاسيةً، إذا مارسوا الغش أو الاحتكار أو زيادة الأسعار. وظيفة تبدو مهمة لتأسيس مجتمع عادل، لكنها كانت الباب الملكي لاقتناص الثروات، حتى أصبحت الرشاوى تُدْفَعُ لنيلها، خاصة أن من يشغلها يعرف كيف يسترد ما دفعه أضعافًا مضاعفة، عبر فساد لا ينتهي!

تنامى نفوذ زين الدين عند تولِّي الظاهر جقمق السلطنة في الفترة من ١٤٣٨م حتى ١٤٥٣م، فعاش أزهى عصوره وحظِيَ بمنصب الاستدار، وحقَّق ثروة عظيمة من تعسفه في الحصول على الأموال بكل السبل حتى لو كانت غير مشروعة، لكنه كان يُكَفِّرُ عن ذنوبه بإنشاء المساجد! فخلال ثماني سنوات أنشأ ثلاثة جوامع حملت اسمه في شارع الأزهر، وبولاق والحبَّانية (خلف مستشفى أحمد ماهر). كان مسجده الأول بشارع الأزهر قريبًا من منزله، واكتمل بناؤه

في ١٤٤٤م، ويُقال إن قاضيًا شرعيًا مارس عمله به في مرحلة تالية، فانتقل لقبه إلى مؤسس المسجد، والطريف أن مسجده ببولاق عُرِفَ في إحدى الفترات بالمحكمة؛ لأنه اُسْتُخْدِمَ كمحكمة منذ القرن السادسَ عشرَ حتى عصر محمد علي. في القرن التاسعَ عشرَ كانت حالة مسجد شارع بورسعيد متدهورة، أغلب أسقفه غير موجودة، ونصفه مُخَرَّب، والمِئذنة غير مكتملة، فتمَّ تطويرُهُ وبناء مِئذنته، وبلغت نفقات إعادة إعماره ٢٧١١ جنيها، وعند افتتاح شارع الأزهر ظهرت واجهته الجنوبية التي كانت المباني تحجبها. كانت حالتها متردية، وأُعيد بناؤها في عهد الملك فاروق. وهي الواجهة التي يتمُّ استخدامُ بابها لدخول المسجد حاليًّا، واستغلها البعض في لصق إعلانات ورقية بل وطباعتها على حجارته أحيانًا.

البحث عن الاستدار

على طريقة شيرلوك هولمز تتبعتُ خطواتِه عَبْر الصفحات. كان يظهر بشكل متقطع وسريع في حالات الرضاء عنه أو الغضب عليه. السلطان جقمق نزل من القلعة وزاره في بيته ليُطَيِّبَ خاطره، بعد أن علم أن المماليك تهجموا عليه نظرًا لتأخرصرف رواتبهم. مع الحكام التالين تأرجح شأنه عدة مرات، وكان يتعرَّض للعزل والتعذيب، وبعد فترة يعود إلى منصبه مُكَرَّمًا! لم يكن ذلك

ليحدثَ مع انتقال السلطة من سلطان لآخر، بل كان يحدث في عهد السلطان الواحد أكثر من مرة. هكذا كان حُكام المماليك غالبًا، لهذا لم يكن غريبًا أن يتعرَّض الوزراء للعزل والتعذيب ثم يعودون إلى مناصبهم بعد أن يهدأ الحاكم، لكن زين الدين الاستدار ضرب رقمًا قياسيًا في عدد مرات العزل والعودة، ونتيجة لذلك اعتاد أن يختفي فجأة إذا ما شعر ببوادر غضب مُرتقَب، يبحثون عنه ببيته وفي أية أماكن متوقَعة، وبعد الفشل في العثور عليه يتمُّ تعيين استدار جديد. ويبدو أن الرجل كان يراهن على أنه لا شيء يفوق خبرته، وبعد أسابيعَ أو شهورٍ من الاختفاء يظهر فجأة، ويقابله السلطان ويعيده لمنصبه ويعزل البديل. لا يذكر ابن إياس تفاصيل مراحل الاختفاء، وقد لا يكون على علم بها، لكن السيناريو يبدو مُتوقَعًا، فغالبًا كان زين الدين يراقب مجريات الأحداث، وفي اللحظة المناسبة يُرسل للسلطان من يشفع له؛ لهذا يكون دخوله مقر الحُكم منطقيًا، وليس طبيعيًا أن يعاود الظهور فتنفتح له أبواب القصر فجأة، كأنها وكالة بدون بوَّاب!

كانت بداية صعود زين الدين- كما ذكرنا- في عهد السلطان الظاهر جقمق، حين عيَّنه أولاً ناظرًا للاسطبل، ثم نظر ديوان المفرد، لكنه سرعان ما قبض عليه

وسلَّمه إلى أحد كبار الأمراء، وهو ما يعني في العادة أن يقوم بتعذيبه، لكن الغريب أن السلطان سرعان ما رضي عنه وأعاده لمنصبه في ديوان المفرد! ثم تولَّى الاستدارية واعتدى عليه بعدها عدد من المماليك بالدبابيس، والدبُّوس سلاح أبيض يشبه النبُّوت، لكنه حديدي يمكنه تهشيم رأس أي إنسان، حتى لو كان يرتدي خوذة.

بعدها بنحو أربعة أعوام ثار عليه المماليك مرة أخرى وهاجموه بالدبابيس قرب جامع المرداني، فقفز من على فرسه وهرب، لكن ثورة المماليك لم تهدأ هذه المرة بل طالبوا السلطان بتسليمه لهم ضمن مطالبَ أخرى، ويبدو أن المطالب أثارت السلطان لدرجة أنه هدد بالتنازل عن الحكم ليختاروا من يشاءون. هدأت الثورة لكن نقمة المماليك على زين الدين استمرت؛ ففي العام التالي نزل السلطان جقمق من القلعة، وقام بزيارة اثنين من المُقرَّبين إليه، أحدهما هو زين الدين ليُطيِّب خاطره بعد هجوم المماليك عليه، لكن الزيارة لم تكن مجانية فبمجرد عودته للقلعة تلقَّى السلطان هدية فخمة من كل منهما!

رحل جقمق عن الدنيا وتولَّى ابنه المنصور أبو السعادات فخر الدين، وبمجرد توليه السلطة بدأ في تدبير الأموال ليستطيع الإنفاق على الدولة، وهي مهمة

أساسية خاصة لدى أي سلطان جديد، فالعجز عنها يُمكن أن يتسبب في الإطاحة به، هنا طلب من كبار مسئوليه أن يدبروا له الأموال المطلوبة، ويبدو أن زين الدين استهان بالحاكم الذي لا يتجاوز عمره تسعةَ عشرَ عامًا، حيث امتنع متعللًا بأن لديه نفقاتٍ عديدةً، بسبب رواتب الجنود التي يتمنى فقط أن يستطيع سدادها. كان السلطان الجديد على خلاف مع زين الدين من أيام والده، فخلعه وعيَّن استدارًا جديدًا سلَّمه له، وطلب منه أن يعذبه حتى يسدد مبلغ خمسمائة ألف دينار! كان أسلوب التعذيب المعتاد هو سمة العصر، وكانت له أدواتٌ مخصوصةٌ هي المعاصير، ورغم عصره فقد قام بسداد أربعين ألف دينار فقط.

إقامةٌ جبريةٌ

تمَّ خلعُ المنصور بعد ٤٣ يوما فقط في الحكم، وتولَّى السلطان إينال الحكم، فأعاد زين الدين إلى منصبه المعتاد، لكن الأخير لم يلبث أن اختفى، ولم يذكر المؤرخ ابن إياس سبب الاختفاء، لكنه نتج غالبًا عن عدم استطاعته تدبير رواتب الجُنود، ومن ذاق طعم" دبابيس" المماليك وغضب الحكَّام يعرف أن في الاختفاء نجاة مؤقتة! بعد شهرين عاد للظهور وقابل السلطان في القلعة، ففرض عليه الإقامة الجبرية في منزله وألا يجتمع بأحد من الناس. وبعدها بأيام

قرر نفيه إلى القدس، وبمجرد خروجه من منزله أرسل إليه السلطان من يفتشه، وكان يُمنِّي نفسه بأن يضبطه مُتلبِّسًا بتهريب أمواله فيصادرها، لكنه لم يُعثرْ معه إلا على ثلاثمائة دينار، ويبدو أن النفي كان مُجرد كمين كي يستخرج ما خبّأه من أموال ويأخذها معه إلى المنفى، فلما لم يجد السلطان شيئًا معه أمر بعودته إلى القاهرة، ليتعرَّض لعملية تعذيب جديدة في القلعة، قال البعض إنه تعرَّض للعصر من جديد، وذكر آخرون أنه لم يُعْصَرْ بل ضُرِبَ خمسمائة عصاة كي يعترف بأملاكه تمهيدًا لمصادرتها، فلم يُقِّر بشيء لكنه عرض أن يبيع أوقاف مساجده الثلاثة ويقدمها للسلطان كي يرضى عنه، وشفع أحد كبار الأمراء فيه لدى الحاكم، لتتحول الأمور بشكل دراماتيكي عجيب، فقد أعاده لمنصبه، وأضاف إليه منصباً آخر هو كاشف الكشاف بالوجهين القبلي والبحري (منصب يشبه وزير التنمية المحلية؛ لأن صاحبه يكون مسئولاً عن الكشافين بالمدن والأقاليم. والكاشف هو المحافظ)!!

بعدها بفترة يسيرة غضب عليه السلطان إينال مرة أخرى وضربه ضربًا مُبَرِّحًا وعزله، ثم أعاده للمنصب، ثم قبض عليه وأمر بضربه أمامه" علقة" قوية، وقيَّده بالحديد لتأخره في صرف الرواتب، وبعدها بشهور نفاه إلى المدينة المنوَّرة،

ورجع بعد أكثر من عام عندما عفا عنه السلطان، وعاد إلى المنصب، وفي العام الثالث لعودته ثار عليه المماليك لتأخر صرف رواتبهم وضربوه بالدبابيس؛ حتى إنه بقي في داره لعدة أيام لتضميد جراحه. ويبدو أن شعبية الرجل كانت في الحضيض، وأن المماليك لم يكونوا وحدهم الراغبين في ضربه، فقد اجتمع قضاة المذاهب الأربعة عند السلطان لشكوى الاستدار، فاعترف زين الدين ببعض ما ادعوا به عليه وأنكر البعض الآخر، وانفضت الجلسة بلا نتيجة. وقبل وفاة السلطان إينال بشهور اختفى زين الدين مرة أخرى، وانقطعت أخباره حتى خلال فترة السلطان الجديد المؤيد أبي الفتح بن إينال الذي تمَّ خلعُه بعد أربعة شهور ليتولى السلطان خُشقدم، وتعود سيرة زين الدين للظهور بتوليته المنصب الذي كاد يُسَجَّل باسمه، وبعد عامين اختفى، لكن النتيجة هذه المرة كانت مختلفة؛ فقد تسبب في تدمير سمعة منصب الوزير! بعد اختفاء زين الدين قرر السلطان خشقدم تعيين وزيره مجد الدين ابن البقري استدارًا، وبقي منصب الوزير خاليًا لعدة أيام، حتى عُيِّنَ فيه علي الشمسي البباي، ورأى عدد من المؤرخين أن هذا التعيين حطَّ من شأن الوزارة، فقد كان جزارًا أو تاجر لحم

أُميًّا، لا يعرف القراءة والكتابة، وبعد تسكين الوظائف ظهر زين الدين، فسلمه السلطان لوزيره الجاهل ليعاقبه ويصادر أمواله.

كل مرة يُعْزَل فيها الرجلُ ويُعَاقَبُ، يمكن أن تكتب نهاية مناسبة لمسيرته، لكن مفاجآت السلاطين لا تنتهي، فعقب القبض عليه قرر خشقدم تعيينه كشافًا للبحيرة، وبعدها بشهور أعاده للقاهرة وعينه استدارًا، وفي نفس الشهر قبض عليه وسلمه للوزير بباي من جديد ليعذِّبَه إلى أن يسدد عشرين ألف دينار، وعيَّن غيره في منصبه! ثم هرب بعدها وعاد وتولَّى الاستدارية وقبض عليه من جديد، ثم أُعيد لمنصبه!!

في بداية الكتابة كنت أسعى لحصر مرات تعيين زين الدين وعزله واختفائه، ومع كثرة تكرار ذلك شعرت بالملل رغم الإيقاع اللاهث للعبارات، وقررتُ تصدير الحكايات كما هي، فالمهم ليس العدد بل الدلالة، فيبدو أن البعض يصلحون لأداء وظيفة الجباية حتى إن الحاكم لا يجد لها غيرهم، حتى لو كان في قرارة نفسه ناقماً عليهم.

اختفت حكايات زين الدين لفترة، وغالبًا انشغل الناس عن سيرته بآخرين يتفننون في سلب أموالهم، لكن السلطان قايتباي لم ينس عداوة قديمة كانت

بينهما، عندما كان قايتباى مجرد جندي، وربما كان إينال أحد المماليك الذين تعدَوا على زين الدين ذات هجمة. يكتب الأثري الكبير عبد الرحمن عبد التواب التفاصيل في كتابه" قايتباي المحمودي"، فيذكر أن زين الدين كان مقيمًا في داره بدون عمل، ورغم ذلك أمر السلطان بالقبض عليه، وعندما أتَوا به إليه وبَّخه بالكلام، ثم أمر بضربه أمامه ضربًا مُبَرِّحًا حتى أوشك على الهلاك، ومع أن قايتباي كان سلطانًا عادلًا حسبما يؤكد الكتاب فإنه لم يراع عمر الشيخ الذي تجاوز الثمانين عاماً؛ ربما لأنه مقتنع بأن جرائم الفساد لا تسقط بالتقادم، أو ردًّا لظلم قديم تعرَّض له على يد الاستدار في أحد أيام سطوته، المهم أنه كان يعتقد أن لديه أموالًا كثيرة وسعى لمصادرتها، وعندما عجز زين الدين عن السداد، أمر السلطان بسجنه بالبرج في القلعة، وهو أحد الأماكن المهمة التي كانت تستضيف المغضوب عليهم، مثل سجن الإسكندرية. لم يقض الرجل وقتًا طويلًا ومات عام ١٤٦٩م، ويبدو أن وفاته أحزنت السلطان الذي لم يشعر أنه أخذ ثأره كاملًا، فطلب بإحضار جثته ورفسها بقدمه ليتأكد من موته، ثم أمر بنقله إلى داره لتغسيله قبل دفنه في مسجده بشارع بورسعيد، ليزاحمه بعدها

بسنوات ضريح آخر لأحد الأولياء اسمه الشيخ فرج، نجح فى اقتناص اسم المسجد منه لفترة!



مسجد قجماس الإسحاقي

" قُجماس الإسحاقي"

وليٌّ صالحٌ يقتنصُ ضريحَ الأميرِ!

في الطريق من باب زويلة إلى الدرب الأحمر[16]، يجتذب المبنى الضخم العيون برشاقته. لكن الاعتياد يظل دائمًا أول محطات التجاهل. يتجاوز الكثيرون جامع قجماس الإسحاقى دون إلقاء نظرة واحدة، وربما لا يتذكره البعض إلا مرة كل أسبوع لأداء صلاة الجمعة، دون أن تجتذبهم تفاصيله الفريدة. في الحارة الضيقة التي تستضيف أحد جدرانه، لم يجد صاحب محل المخللات الموجود تحته مشكلة في عرض بضاعته، على الأقل ليست مصدر خطر للمبنى، مثل أنشطة تجاور مبانيَ أثرية أخرى، والمظهر الجمالى ليس مهمًّا إذا ارتبط بأكل العيش. خطوات قليلة تنقلنا إلى ممر صغير يربط الحارة بشارع الدرب الأحمر، بائع الدواجن في المبنى المقابل لم يجد بدوره غضاضة في تحويل أحد جداران المسجد إلى معرض للطيور الحية! سؤال المحيطين عن اسم الجامع سيجد الرد سريعا: "مسجد أبو حريبة". تجاهل من قام بتشييده ليس خطيئة، فللاسم الجديد مبرره، كما أن البنك المركزى المصري نفسه اعتمد مسمى أبو حريبة، لتعريف الصورة التي

---

[16] الدرب الأحمر

تُزيِّن ورقة الخمسين جنيها. إنها الأسهل مقارنة بالاسم القديم الذي يحتاج إلى تكرار نطقه عدة مرات قبل أن يُمكن لفظه بطريقة سليمة.

كان قجماس الإسحاقي أميرًا مُقرَّبا من الملك الأشرف قايتباي، عيَّنه نائباً على الإسكندرية، ثم أصبح أميرآخور لمصرَ، وفي عام ١٤٨٠م أصبح نائباً للشام فأقام بها حتى تُوُفِّيَ بعدها بسبعة أعوام. وقد انتهى العمل بالمدرسة عام ١٤٨٢م خلال وجوده خارج مصر.

لا تتضمن قصة حياة الأمير قجماس تفاصيل مثيرة، فقد كان حسن السيرة ومتواضعًا، مما يجعل حضوره فى القصص التاريخية باهتًا نوعًا ما، كل ما يُذْكَرُ عنه أنه أنشأ مسجدًا بالإسكندرية، ومنشآت أخرى لم يبق منها سوى مسجده بالدرب الأحمر، كما أشرف على عمارة قلعة قايتباى، وأنشأ مدرسة في دِمَشقَ. كان أميرًا هادئاً، لا يثير المشاكل، وقد تقلَّب في المناصب راضيًا، لهذا رحل بدون مشكلات.

اقتربتُ من المسجد وصعدت سلالمه. لا توجد لافتة تحمل اسمه ولا أي إشارة تُوضِّح تفاصيل المجموعة المتكاملة التي تتضمن كُتَّابًا وسبيلًا، ودخلتُ واتجهت يسارًا في الممر الذي يصل بمرتاده إلى مكان الصلاة. نقوش بديعة

تنتشر على جدرانه ومنبره ومحرابه، تُمَيِّزُه عن آثار عديدة تنتمي لعصره، شبابيكه ذات الزجاج المُلَوَّن تجعل الضوء العابر يكتسي بألوان الطيف، رغم وهنه يطغى على وهج لمبات النيون المنتشرة في المكان بفجاجة الحاضر الذي يُثبت الماضي قبحه، لكني انشغلت عن كل ذلك بالبحث عن أي إنسان في المكان، شعرتُ بالقلق على مقتنياته في منطقة تعرَّضت مقتنيات مساجدها قبل سنوات للتفكيك والسرقة، في غفلة من جهات عديدة تُشرِف عليها. أنهيتُ جولتي وخرجت. هنا فقط ظهر الحارس قادمًا من ناحية السبيل، سألني:" لقيت الباب مفتوح وللا زقيته ودخلت؟". بالتأكيد كان الباب مفتوحًا. بدأ يسوق تبريرات عديدة لاختفائه، خلال عودتنا للداخل في طريقنا إلى الضريح، حيث يرقد أبو حريبة. كان قجماس قد أعد الضريح تحت القبة ليُدْفَنَ فيه، لكن القدر احتفظ به لشخص آخر لم يظهر إلا بعد نحو أربعة قرون، مات مؤسس المسجد في دِمشقَ ودُفِنَ بها، ثم جاء الولي الصالح ليجد في الضريح الخالي مقبرة غير تقليدية.

اتجهنا إلى معبر ضيق ينطلق من المسجد إلى مبنى آخر في الجهة الأخرى من الحارة الجانبية، لينقل العابر فوقه إلى الميضأة في تشكيل معماري فريد، تجاوز عقبة الحارة الفاصلة بين المبنيين، وحفظ لها حق الطريق.

جولة عابرة تنجح في نقل الزائر عدة قرون إلى الوراء. لكن الحاضر يفرض وجوده دائمًا، بتفاصيلَ نبرع في إضافتها، دون أن نضع الجماليات الأصلية في اعتبارنا، فالحاجة دائمًا تجعل الجمال فريضة غائبة!!



مسجد قاني باي الرماح

" قاني باي الرماح"

سرُّ اختفاء المنبرِ

لو أنه موجود فى مكان[١٧] آخر لصار أكثر جذبًا للأنظار، بقبته المنقوشة التي تتجلى فيها قمة إبداع المهندسين في العصر المملوكى، ومِئذنته المُربعة ذات الرأس المزدوج. لكن القلعة تُطِلُّ عليه من أعلى، وجدران السلطان حسن والرفاعى ترتفعان من مستوى أسفل منه، مما يجعل الكثيرين ينشغلون عن مسجد" قاني باي الرمَّاح"، رغم حضوره المؤثر فى ميدان القلعة.

على غير العادة تأتي حكايات هذا المسجد، لتغطي بإثارتها على قصة مؤسسه. فقد أصبح معتادًا أن نعرف أن المؤسس كان أميرًا في عصر ما، وما دامت قصته تمضي في سياق معتاد، يبدأ من الميلاد ثم الترقي في المناصب حتى الوفاة، فإن الحكاية تظل معتادة. عمومًا كان قاني باي الرماح مملوكًا للسلطان الأشرف قايتباى، أعتقه وبدأ يمنحه الترقيات عام ١٤٩٣م، حتى صار أميرًا لحلب، وعاد بعدها لمصر وتزوج ابنة أمير آخر. وبعد تولِّي محمد بن قايتباي الملك، رقَّاه حتى صار أميرآخور(المُشرف على اسطبلات السلطان)، وجاء لقب الرمَّاح من اتقانه الرمي بالرمح، وقد بنى مسجدين حملا اسمه؛ أحدهما في السيدة زينب

[١٧] ميدان القلعة

والثاني بميدان القلعة، وهو محور حديثنا، وقد دفن قاني باي تحت قبته، بعد وفاته في ١٥١٥م.

بين الرغبة في الثراء السريع وإعلاء المنفعة الذاتية على قيمة الأثر، عانى المسجد كثيرًا، في نهايات عام ٢٠١٠م؛إذ تمَّ اكتشافُ سرقة منبره. لم تكن السرقة جزئية مثل المعتاد، بل تمَّ فكُّ المنبر كله، واختفى بعدها رغم ضخامته. تفجَّرت علامات استفهام عديدة، حول كيفية ارتكاب الجريمة في غفلة من الجميع، وقيام اللصوص بفكِّه وإخراجه من المسجد ونقله دون أن ينتبه إليهم أحد، في منطقة لا تتوقف الحركة فيها صباحًا ومساءً. اكتشاف الجريمة في ذلك التوقيت لم يكن يعني أنها ارتكبت في غضون أيام أو أسابيع أو حتى شهور قبل اكتشافها، فالمسجد كان مغلقًا قبلها بسنوات، مما يعني اتساع نطاق الاحتمالات. تمَّ تحويلُ الأمر للتحقيق، وبدأت وزارة الثقافة المسئولة عن قطاع الآثار وقتها تبادل الاتهامات مع الأوقاف، فلكل منهما جانب من الإشراف، لكن ظلت علامات التعجب تتناثر، حول عدم قيام مسئولي الآثار بواجبهم، عبر حملات دورية على الأماكن الأثرية حتى لو كانت تحت إشراف جهات أخرى!

كان المنبر المسروق مطعَّماً بالحشوات ومنقوشًا بزخارفَ نباتيةٍ مورقة، ورغم أنه لم يلفت انتباه الأثري الكبير حسن عبد الوهَّاب في كتابه" تاريخ المساجد الأثرية" فمرَّ عليه مرور الكرام، لكن عدداً من خبراء الآثار المعاصرين أكدوا أنه كان واحدًا من أكثر المنابر المملوكية جاذبية وأهمية.

زيارة المسجد حاليًّا غير ممكنة؛ لأنه مغلق، لهذا يظل وصف جمالياته الداخلية معتمدًا على النقل من الكتب، لكن مظهره الخارجي الذي يتصدر ورقة المائتي جنيه كفيل بفتح أبواب الخيال. فى عام ١٨٧٠ تمَّ هدمُ المِئذنة الأصلية نتيجة خلل بها، لم يكن هذا هو الخللَ الوحيدَ الذي حدث بالمسجد، فلم يرحمه البشر من ممارساتهم السلبية: أنشئوا دكاكين غطَّت واجهته، واستحدثوا سقفاً يغطي صحنه المكشوف، ومن باب الاحتفاء به قاموا بإعادة طلاء جدرانه الداخلية، مما حجب الزخارف البديعة التي كانت تزينها، وفي عام ١٩١٤م تمَّ إزالةُ كلِّ هذه التشوهاتِ، وعادت الواجهات والزخارف للظهور، وأصبح الصحن متصلا بالسماء دون عوائق، كما تمَّ إصلاحُ قاعدة المِئذنة وبناء الجانب الغربي.لكن لم يتم تشييدُ المِئذنة الحاليَّة إلا في ثلاثينيات القرن العشرين في عصر الملك فاروق؛ حيث تمَّ بناؤها على نفس شكلها الأصلي اعتمادا على صورة

قديمة لها في إدارة حفظ الآثار العربية، ومع الاستدلال بمِئذنة مسجده الثاني في السيدة زينب.

العثمانيون

انتصارٌ عسكريٌّ.. وهزائمُ معماريةٌ



جامع المحمودية

" المحمودية"

مسجدُ الوالي المقتول

يُطِلُّ جامع المحمودية على ميدان القلعة مباشرة[١٨]، ومن خلفه يبدو مسجد قاني باي الرمَّاح؛ فارق العمر بينهما يتجاوز الستين عامًا بقليل، لكنها كانت كافية لحدوث تحولات جِذْرية، فقد اختفى الحكم المملوكي بعد ١٤ عاما من بناء قاني باي لمسجده، وأصبحت مصر ولاية عثمانية، ولم تكن التحولات سياسية فقط، فقد امتدَّت إلى الأنماط المعمارية السائدة التي شهدت ظهورَ طُرُزٍ جديدةٍ، وتراجُعَ بعض الفنون المملوكية التي اتسمت بالعظمة، مما جعل البعض يعتبر أن العثمانيين كسبوا المعركة العسكرية ضد المماليك، لكنهم خسروا الحرب في مجال العمران!

إذا أخذت موقعًا مناسبًا في ميدان القلعة يتيح لك زاوية نظر تجمع قاني باي والمحمودية في مشهد واحد، فإن قبة الأخير تبدو شديدة الفقر بالنسبة لنظيرتها في المسجد الأول. كما أن مِئذنة المحمودية بالغة البساطة مقارنةً بالمآذن المملوكية التي اتسمت بالتنوع والثراء، وحافظت على رشاقتها رغم تقدمها في العمر! تحوُّل ترصده العمارة التي تترجم التغيرات في المجالات كافَّة.

---

[١٨] ميدان القلعة

أنشأ المسجد محمود باشا والي مصر في عصر السلطان العثماني سليمان. عند وصوله إلى الإسكندرية ليتولَّى مهام منصبه، استقبله الأثرياء بالهدايا، وعندما دخل القاهرة قدَّم إليه حاكم الصعيد وقتها خمسين ألف دينار مع كثير من التحف والهدايا، ويبدو أن الهدية الفخمة جاءت برد فعل عكسي، فبدلًا من أن تضمن لصاحبها الحُظْوة عند الوالي، جعلته يطمع في ممتلكاته فقتله واستولى على ثروته. وكان محمود باشا ظالمًا، صادر الكثير من الأموال، لكنه كان كريمًا على المحيطين به، فلم يكن يلبس هو وأتباعه سوى أفخم الثياب، وكانت جميع أوانيه من الذهب والفضة.

ظُلْم الوالى خَلَقَ له أعداء كثيرين بالتأكيد، وكتب الفصل الأخير من حياته بالفعل، ففي أحد الأيام خرج بموكبه الفخم من القلعة، وخلال مروره وسط البساتين فاجأه شخص مجهول وأطلق عليه النار فأصابه، وعندما أدرك الوالي أن العلاج لن ينقذه من الموت، أوصى بعتق جميع مماليكه، ووهب كل ممتلكاته لزوجته، ومات ودُفِنَ في مسجده، لتطلق عليه بعض المصادر التاريخية لقب محمود باشا المقتول.

في السطور السابقة تعمدتُ ألا أذكر تواريخ وصول محمود باشا إلى مصر ولا تلك التي تتعلق بواقعة اغتياله، حيث يظهر تضارُب حولها، وهو تضارُب يثير الدهشة، فقد ذكر حسن عبد الوهَّاب أن الرجل وصل إلى مصر في إبريل ١٥٦٦م، وتمَّ اغتيالُهُ فى ديسمبر ١٥٦٧م، وفي رسالة ماجستير عنوانها: "مدافن حكام مصرَ الإسلامية بمدينة القاهرة" ذكر محمود سيد عبد الله، أن الباشا وصل إلى مصرَ في مايو ١٥٦٥م، وقُتِلَ في يناير ١٥٦٧م. في الحالتين لم يُكْمِلْ محمود باشا عامين في حكم مصرَ، لكن تضارُب التواريخ يؤكد من جديد حاجة الكثير من الكتب للتدقيق، فشخصيًا لا أعرف أي تاريخ هو الصحيح فيما سبق ذكره، فضلًا عن معلومة أخرى أثارت دهشتي؛ فرغم أنه يسبق مسجد الملكة صفية في تاريخ بنائه، فإن المراجع تتجاهله عند ذكر المساجد العثمانية الأولى في مصرَ، وتذكر أن أول ثلاث مساجد بُنِيَتْ على الطراز العثماني، هي سليمان باشا بالقلعة وسنان باشا ببولاق، والملكة صفية، أما الرابع فمسجد أبو الذهب بالأزهر. فهل يعني ذلك أن مسجد المحمودية لم يكن قد تخلَّص من سمات العمارة المملوكية بالكامل؟ يذكر حسن عبد الوهَّاب أن المسجد من الداخل عبارة عن قاعة كبيرة مربعة، طول ضلعها ١٩,٧٥ متر، ويشطر

المسجد إلى قسمين طُرْقة منخفضة عن مستواه قليلًا، ويقول:" وهذا التصميم شاع أيضا في مساجد مصرَ في الدولة العثمانية، فلا هو تصميم مسجد ولا هو تصميم مدرسة"!

عندما زرتُهُ كان باب السور المحيط به مفتوحًا، وكذلك مدخله الذي يلوح على بعد أمتار، ويقف في نهاية سلم يصل الزائر بالمسجد المُعَلَّق، حاولتُ دخوله لكن الحارس أكد أن سماحه لي سيجلب له جزاء إداريًا؛ لأن دخوله ممنوع منذ ٢٦ سبتمبر ٢٠١٦م. ذكر التاريخ بدون تفكير فتمنيتُ أن تكون ذاكرته قد نجت مما أصاب بعض الكتب، وأشار إلى أن السبب هو أعمال الترميم؛ لأن المِئذنة بها ميل، وبالفعل كانت الشروخ العميقة تبدو واضحة على قاعدة المِئذنة.



مسجد الملكة صفية

"الملكة صفية"

السلطانة تسطو على مسجد مملوكها بالقانون

على مسافة أمتار من شارع محمد علي[١٩] يقف المسجد، في نهاية حارة تفصله عن الشارع العريق. يستحضر ذكريات نزاع غريب، بين ملكة عثمانية لم تزر القاهرة إطلاقا على الأغلب، ومملوك لها بدأ تشييد الجامع ثم مات قبل أن يكتمل، وكان يُمكن أن يحتفظ المسجد باسم المملوك حتى الآن، لو جاء الحكم لصالحه.

في أحد أيام عام ١٥٩٤م نظرت هيئة المحكمة باسطنبول الدعوى غير التقليدية. كان عثمان أغا قد بدأ تشييد المسجد وخصص له أوقافًا كثيرة، شملت ٤٠٠ فدان في منوف، وعقارات ببولاق، منها ١٧ شونة، ٣٢ دكانًا، ١٥ ربعًا، و٥ آبار.

خلال التشييد مات عثمان أغا. ولأنه من مماليكها رفعت الملكة صفية زوجة السلطان العثماني مراد الثالث الدعوى، وأوكلت عنها عبد الرزاق أغا، الذي أكد أن عثمان عبْدٌ لها، وبالتالي لايحقُّ له بناء الجامع ولا تخصيص أوقاف له، وقدَّم فتوى دينية بأن من حق السيدة أن تستحوذ على كل ممتلكات مملوكها.

---

[١٩] متفرع من شارع محمد علي

كان الطرف الثاني في الدعوى هو داوود أغا وكيل الوقف، وقد أقسم أن الملكة أعتقت عثمان قبل إنشاء المسجد، ثم طلب سماع شهادتها بشكل مباشر، فوافق القاضي على طلبه، وأرسل مندوبين إلى القصر، أقسمت أمامهما الملكة صفية أنها لم تُحرر عبدها قبل وفاته، وبهذا صدر الحكم لصالحها، وتمَّ إلغاءُ الوقفية وطرد داوود باشا من النظارة. وقامت الملكة بتعيين إسماعيل أغا ناظرًا شرعًيا على الوقْف، فأتمَّ بناءَه ليحمل اسمها، رغم عدم وجوده بشكل مباشر في اللوحة التذكارية فوق أحد أبواب القبة. فقد أشارت اللوحة لصاحبة المسجد بصفتها والدة للمرحوم السلطان محمد خان(الثالث)، مما يعني أن بناء المسجد اكتمل بعد عام ١٦٠٣م، وهو تاريخ وفاة محمد خان.

يرتفع المسجد عن الشارع بنحو أربعة أمتار، ورغم ذلك لم يرحمه ارتفاعه من عدوان البشر الذين تجرءوا عليه وحجبوا واجهاته بمنازلهم، وفي عهد الملك فؤاد تمَّ نزعُ ملكية المنازل وهدمها، وعادت الواجهات للظهور من جديد، لكن أبوابه مغلقة حاليًّا. وبهذا لم يعد الزائرون قادرين على إشباع عيونهم بالجماليات الداخلية، لثالث جامع أقيم على الطراز العثماني بمصرَ، بعد سليمان باشا بالقلعة وسنان باشا في بولاق.

من بداية الحارة التي تصله بشارع محمد علي لا تبدو تفاصيله. لكن الطرف الأعلى من مِئذنته الاسطوانية الرشيقة يغالب زحام الأبنية المحيطة، ويُطِلُّ ليعلن عن وجود المسجد الذي ارتبط باسم ملكة كانت من أسرة إيطالية نبيلة، واختطفها القراصنة مع أخريات خلال رحلة على مركب. لم يكن عمرها يتجاوز الأربعة عشر عاما، عندما تمَّ بيعُها لأحد القصور الملكية في اسطنبول، وفتح لها جمالها الأخَّاذ الأبواب حتى تزوجها السلطان وأنجبت خليفته. لكن جمالها كان يُخفي الكثير من القسوة على ما يبدو، حيث يُقال إنه عند تنصيب ابنها في السلطنة بعد وفاة أبيه، تساءل عن سر غياب إخوته عن الحفل، ولم يكن يعلم أن الملكة الأم أمرت بخنق اثنى عشر أخًا له قبلها بساعات، كي لا ينازعه أحد على الحكم بعد ذلك.

هل هي قصة حقيقية؟ الإجابات الحاسمة غير مطروحة، فالتاريخ عادة ما يحمل أكثر من وجه، حسب انتماء كاتبه، لكن العديد من الدراسات تؤكد أن قتل المنافسين على العرش، كان أحد القواعد التي وضعتها الدولة العثمانية حفاظًا على قوتها، وفي كتابه" تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط" يؤكد بيتر مانسفيلد أن السلطنة كانت تمارس حكمًا استبداديًا مُطلقًا دون تفكير، وكانت

حريصة أن تحافظ على ذاتها، حتى لو تطلب الأمر اللجوء إلى الأعمال الوحشية، وأضاف: " عندما تولَّى يزيد الأول السلطة خلفًا لوالده مراد في عام ١٣٨٩م نجد أن أول عمل قام به بعد أن أصبح سلطانًا هو إصداره أوامره بخنق أخيه الأصغر على أساس أنه يمكن أن يُصبح منافسًا له، وهو بذلك أرسى تقليدًا إمبراطوريًا يجيز قتل الأخ الشقيق، وهو قد ارتكز على المبدأ الذي يقول إن أي شيء يعتبر أفضل من التحريض على الفتنة والعصيان، ومن المدهش أن محمد الخامس بعد مرور قرن من الزمان قد أعطى هذا التقليد قوة القانون"، ويشير إلى أن السلطان سليم أمر بعدها بشنق شقيقيه، بل وامتدَّ القرار إلى خمسة من أبناء أحد أخويه.

وَفْقًا للقواعد الإنسانية لا يمكن الدفاع عن هذه المجازر، لكنها لم تكن حكرًا على العثمانيين، فقد بدأت مؤامرات القصور منذ أقدم العصور، وارتكبها المماليك في التوقيت ذاته تقريبًا، ولم يكن القتل قاصرًا على الأمراء المنافسين والسلاطين المخلوعين وورثتهم، بل امتدَّ في بعض الأحيان إلى قتل الابن، مثلما حدث في واقعة السلطان المؤيد شيخ مع ابنه إبراهيم، لكن الدولة العثمانية مارست القتل المنظم في محيط الأسرة الواحدة، ويبدو أن السلطانة الإيطالية

الحسناء استوعبت الفكرة جيدًا، وطبقتها لتحتفظ بسطوة يستحقها لقب السلطانة الأم، فقد تحكمت خلال سلطنة ابنها المطيع في كل شيء، فكانت تدير الدولة وتتحكم في تعيين الوزراء والفرسان وعزلهم، وبعد وفاة محمد الثالث تولَّى ابنه أحمد، واحتفظت صفية بنفوذها لفترة قصيرة مع حفيدها، نظرًا لضعف شخصية السلطانة الأم الجديدة، لكن لم تلبث زوجة السلطان التي اتسمت بالقوة والذكاء أن أزاحتها جانبًا، لتقضي على سطوتها إلى الأبد.



مسجد أبو الذهب

" أبو الذهبِ"

صاحبُ المسجد يقودُ الثورةَ المضادةَ

يقف المسجد منعزلًا في مواجهة الجامع الأزهر[٢٠]، رغم زحام مزمن يحيط به. على مدار عقود طويلة، ظل غالبية زوار المنطقة يفضلون الصلاة فى الأزهر أو الحسين. لهذا قد لا ينتبه الكثيرون إلى أن أبوابه مغلقة منذ سنوات. قليلون من المارَّة يرفعون أبصارهم إلى الأعلى، ويتأملون القبة البديعة والفريدة التى تمنح المكان خصوصية لا تتكرر كثيرًا في مساجد القاهرة، وتجعله مختلفًا نسبيًا عن ثلاثة مساجد سبقته إلى الطراز العثماني.

عادة ما تكون أسماء المساجد معروفة، بينما يظل الدور التاريخي لأصحابها مجهولًا للعامة، لكن الأمر مختلف في هذا المسجد، فرغم أن كثيرين لا يعرفون بوجوده، فإن شخصية محمد بك أبو الذهب مألوفة بعد أن استمرت لسنوات أحد الدروس المقررة في مادة التاريخ، ودائمًا ما كان صاحبها يقترن بعلي بك الكبير الذي شغل ثانيَ أكبرالمناصب في مصرَ بعد الوالي العثماني، فأصبح شيخ البلد عام ١٧٦٣م. بعدها بخمس سنوات تمرد على الخلافة العثمانية، ومنع

[٢٠] شارع الآزهر

دخول الولاة الأتراك إلى القاهرة، وأعلن مصر مملكة مستقلة وصَكَّ عملة باسمه.

كان أبو الذهب أحد الأمراء المُقرَّبين من" الكبير"، رقَّاه في المناصب فجعله خازندار؛ أي وزيرًا للمالية، ثم قلَّده الصنجقية، وتعني حاكم منطقة، وأُقيم احتفالٌ بهذه المناسبة في القلعة. شعر أبو محمد بك بالسعادة الغامرة، ومضى في الشوارع يوزع الذهب على الفقراء، فعُرِف باسم أبو الذهب.

ظهر الرجل في فترة تاريخية مُلَبَّدَة بالغيوم؛ فقد كانت مصر قد أصبحت فيها ولاية عثمانية، لكن المماليك ظلوا يعيشون على ذكريات أمجادهم القديمة. وفجأة انقلب علي بك على الوالي العثماني محمد أورفلي باشا عام ١٧٦٨م، وعزله في نفس عام ولايته، ثم حبسه بقصرعبد الرحمن كَتْخُدا حتى مات بعدها بعام.

كان أبو الذهب مصدر ثقة الأمير الكبير، وانطلق بأمر منه فى حملة إلى الأراضي الحجازية، لإعادة شريف مكة إلى منصبه بعد انقلاب جرى ضده، وفي العام التالي أرسل علي بك الكبير محمد أبو الذهب إلى الشام على رأس حملة، مع أمير آخر اسمه إسماعيل بك. كان الأخير ميَّالًا إلى الدولة العثمانية، وفي الوقت نفسه كان يخشى من تفوق أبو الذهب وعلو شأنه إذا استمرت نجاحاته الحربية، فبدأ

إجراء عملية غسيل مخ له، أخبره أن خُطط علي بك الكبير ضد مصلحة المسلمين؛ لأنه يرتكن إلى مشورة كاترينة إمبراطورة روسيا، التي كانت بلادها تخوض حربًا ضد العثمانيين، وحذَّره من قوة متمردي الشام الذين اتفق معهم" الكبير"، وأكد أنهم فَجَرَة لا يلتزمون باتفاقاتهم، وبالفعل اقتنع أبو الذهب بالعودة إلى مصر، وهو ما أغضب علي بك الذي كان يرغب في توسيع حدود مملكته، بينما قاد تلميذه الثورة المضادة. وبدأ النزاع الذي أسفر عن مواجهة حربية، فخرج علي بك إلى منطقة البساتين وحصَّنها وأقام بها المدافع، وحدثت موقعة انتصر فيها أبو الذهب، لكن الأول صمد حتى آخر اليوم إلى أن فرَّ أغلب جنوده؛ عندها لم يجد" الكبير" أمامه سوى الهرب إلى الشام، ودخل أبو الذهب القاهرة وتولَّى إمارتها، وبعدها بشهور كان علي بك الكبير قد جمع الجنود واستعان بالأسطول الروسي الموجود في البحر المتوسط، وواجه تلميذه أبو الذهب في موقعة انتهت بانتصار الأخير. وقُتِلَ علي بك عام ١٧٧٣م، وعادت مصر ولاية عثمانية، بعد أن ظلت دولة مستقلة لسنوات قليلة.

فرحةٌ ما تمتْ!

أرسلت الدولة العثمانية واليًا لمصر بعد سنوات الانقطاع، هو خليل أغا باشا، الذي كان حاكمًا شكليًا؛ لأن النفوذ كله كان لمحمد أبو الذهب، بمساعدة

الأميرين الشهيرين مراد بك وإبراهيم بك. وبعد شهور قرر أبو الذهب أن يهاجم بلاد الشام، وانتصر لتصبح في طاعته، هنا أرسل إلى الدولة العثمانية يلتمس فيها أن تُنْعِمَ عليه بإمارة مصر والشام، وهو ما تحقق له، لكنه لم يجد الوقت للاستمتاع بما حققه، حيث تُوُفِّيَ بعد وصول الموافقة بثلاثة أيام، فأحضره الأمراء ودفنوه في مسجده، وبعدها بسنوات انضمت إليه أخته زليخا هانم زوجة إبراهيم بك شيخ البلد.

عندما أصبحت مقاليد الأمور في يده، اشترى أبو الذهب خان الزراكشة المجاور للأزهر، وبدأ تأسيس مسجده على جانب منه، ليكون مدرسة تساعد الجامعة العريقة في رسالتها، ويروي الجبرتي أن مؤسس المسجد أنشأ ساقية لإمداد الميضأة بالمياه، فخرج ماؤها حلوًا رغم أن الآبار والسواقي المحيطة كانت تأتي بماء شديد الملوحة. مما جعل البعض يعتبرها علامة سعد لازمت مؤسسه. لكنْ السعد الذي صاحبه في عصره تراجع بعد ذلك، فقد أصبح متهمًا في كثير من كتب التاريخ بالخيانة؛ لأنه مسئول بشكل مباشر عن إجهاض واحدة من الحركات التحررية المُبكرة، في تاريخ مصر.

رغم طرازه التركي فإن المسجد احتفظ بعناصرَ معماريةٍ وزخرفية تنتمي للفن المملوكي. يتطلب دخوله صعود سلالم عديدة؛ لأنه من المساجد المعلقة التي تُقام المحلاتُ أسفلها. يؤدي مدخلاه إلى طُرْقة مكشوفة تحيط بالجامع من ثلاث جهات، أما القاعة الرئيسية فمربعة تعلوها قبة كبيرة مزخرفة بنقوش مذهبة، ربما لا يمكن للزائر حاليًّا رؤيتها لأن المسجد مغلق، لكن شكلها الجذاب من الخارج كفيل بالإفصاح عن جمالياتها، وبالقرب منها المِئذنة المربعة التي بُنِيَتْ على طراز مصري. انتهى بناء المسجد عام ١٧٧٤م، وسيطرت عليه الزخارف المُذَهَّبة، لتكرس اللقب الذي ارتبط بصاحبه.

ذِكر الطراز المصري يعيدنا إلى موقف محمد بك من أستاذه علي بك الكبير، الذي أدَّى إلى وصمه بالخيانة، وهوموقف أفرز وجهتي نظر متضاربتين: الأولى تتحدث عن حركة استقلال، والثانية تضفي عليها بُعْدًا تآمريًا، ينطلق من واقع مأساوي بدأ بعدها بأقل من قرن ونصف، حيث يرى أصحابها أن ما قام به علي بك الكبير، كان بداية مبكرة لخدمة المشروع الصهيوني. تظل كل رؤية تنطلق من زاوية نظر صاحبها، ووَفْقًا للقناعات المتضاربة، يتغير توصيف محمد أبو الذهب، فالكثير من المؤرخين المصريين تعاملوا معه باعتباره خائنًا، أجهض

واحدة من أهم الحركات التحررية، بينما يراه آخرون بطلًا حافظ على تماسك دولة الخلافة العثمانية، في مواجهة خيانة علي بك الذي لجأ إلى الروس لدعمه في مواجهة أبناء ملته، وأشاروا إلى أنه كثيرًا ما كان يتغنى ببطولات أجداده المماليك، ويرى أن العثمانيين استولَوا على مصرَ بكثرتهم العددية ونفاق أهلها! وبعيدا عن الجدل الذي لن يتمَّ حسمُه، فإن السؤال الأكثر أهمية هو: هل يمكن توصيفُ ما فعله علي بك الكبير باعتباره حركة تحررية مصرية بالفعل؟ أم أنها كانت محاولة لاستعادة النفوذ المملوكي، الذي أطاحت به الإمبراطورية العثمانية قبلها بنحو قرن؟ أعتقد أن الصراع كان بين طرفين غير مصريين، ولم يكن استقلال مصرَ عنصرًا حاضرًا في أذهان الجانبين، بل كانت مصلحة كل منهما هي الأساس. لكن وصم أبو الذهب بالخيانة يمكن أن ينطلق من زاوية أخلاقية، بعد أن انقلب على سيده الذي رعاه ورقَّاه لأرفع المناصب، ولم يتوقع أن تأتي الطعنة منه. إنه منطلق أخلاقي لا سياسي جعل المصريين قبلها بقرنين ونصف، ينقمون على خاير بك الذي خان السلطان قنصوة الغوري، وتسبب في هزيمته في مرج دابق، مما مهد لزوال دولة المماليك، واحتلال مصر من جانب العثمانيين.

المرأةُ الغامضةُ

وسط كل هذه الأجواء الضبابية، تظل هناك شخصية تستحق دراساتٍ موسعةً، إنها نفيسة البيضاء، جارية علي بك التي تزوجها بعد ذلك، وكانت سببًا مباشرًا فى انقلاب مملوكه مراد عليه، فعندما بدأ أبو الذهب التخطيط للانقلاب على أستاذه، فاتح مراد في الأمر، ويقال إن الأخير اشترط أن يتزوجها بعد التخلص من علي بك؛ لأنه كان قد وقع في غرامها! وهو ما تحقق بعد ذلك، وكانت لها كلمة مسموعة عندما أصبح مراد بك واحدًا من أهم الأمراء المسيطرين على مصرَ. والغريب أنه بعد الاحتلال الفرنسي لمصرَ ارتبطت بعلاقة وثيقة مع الفرنسيين فى الفترة التي هرب فيها زوجها إلى الصعيد بعد هزيمته أمامهم، وسمحت بتمريض الجرحى من جنود الحملة في قصرها، الذي دخله نابوليون بونابرت ذات يوم، تلبية لدعوة نفيسة البيضاء على العشاء!

هلْ هيَ حقًا خاتمةٌ؟!

أعترف بسذاجة الماكرين، أنني نصبتُ لكم فخًّا! فالحواديت دائمًا أكثر قدرة على الجذب، بأحداثها المثيرة التي تستهويكم على مستوى السرد المعتاد. لكن القارىء أحيانا قد يتجاوز حدود الحكاية إلى ما هو أعمق، فيدخل في منافسة مع الكاتب على اقتناص الرمز، ومحاولة إسقاط الماضي على الحاضر. إنها لعبة تعتمد على أن الحواديت ليست مجرد حكي، خاصة إذا ما ارتبطت بتاريخ أسهم في تشكيل واقعنا، وشخصيات ما نزال نرى نماذج شبيهة لها، وكأن الأرواح تتناسخ بشكل رتيب. في تلك اللعبة يحاول بعض القراء الهروب من فخ الكاتب بنصب مصيدة مضادة له، وهو ما يمنح الطرفين متعة المغامرة!

تحفظ الحجارة الكثير من الأسرار، لكنها لسوء الحظ- أو لحسنه- غير قادرة على البوْح؛ لهذا أعترف من جديد، بأن كل ما كتبتُه ليس تاريخًا سريًّا مثلما يدَّعي العنوان المُخادع، فكل ما ذكرتُه موجود في صفحات الكتب القديمة، ينتظر فقط من ينفض الغبار عنه. لكن المفارقة أن مضمون الصفحات قد يُناقض بعضه، ربما نتيجة عدم دقة مؤرخ، أو لأن الحياد فريضة غائبة في كل مسارات حياتنا. ورغم ذلك نعيد تداول التناقضات، وأحيانا الأخطاء دون أن ننتبه. في روايته" قصة حصار لشبونة"، يتحدث الأديب البرتغالي خوسيه ساراماجو

بوضوح، عن تلك الكتب التي لم تفعل شيئًا سوى تكرار ما جاء في الأعمال الأقدم منها دون تمحيص، ويُشفق على كل من صار ضحية بريئة لحسن نيته أو لأخطاء الغير. وأزيد عليه أننا نتحوَّل في أحوال كثيرة من ضحايا إلى جناة، فلا تتوقف خطيئتنا على النقل التلقائي، بل نزيد عليه أهواء تأويلاتنا، لنجعل من التاريخ سلسلة أخطاء متراكمة، ويصبح حسن النية مبررًا غير مستساغ، لكل من لم ينتبهوا إلى تضارب القصص، أو انتبهوا إليه دون إشارة تدفع المتخصصين لضبط إيقاع الأحداث.

تصحيح الأخطاء يحتاج إلى مجهود مُضْنٍ، لا يُفْتَرَضُ أن ينتهي بالضرورة إلى الحقيقة المؤكدة، فكثيرون ممن كتبوا لم يعاصروا ما سردوه من أحداث، ويزداد الأمر صعوبة عندما يفتح بعضهم الباب لوجهة نظره الشخصية. وباستبعاد الجزئية الأخيرة، أعتقد أن كتب التاريخ تحتاج إلى تنقية وتدقيق، لكشف تناقضات قد تعتري المؤرخ نفسه في أكثر من كتاب له، بل وربما في الكتاب ذاته أحيانًا. وفي" حواديت المآذن" حاولتُ أن أدقق قدر المستطاع، وأكشف بعض التناقضات كنماذج على سبيل المثال لا الحصر، لكن المهمة تقع على عاتق المؤرخين والباحثين، كي يقوموا بدورهم كما ينبغي، ففي النهاية أنا مجرد راوٍ

لحواديت ولستُ مؤرخًا. هنا أعود لاعترافي؛ فقد صنعتُ للقارئ فخًّا، لكنني كنتُ أول من سقطتُ فيه، منذ أن نشرتُ بذور هذه القصص على صفحات رمضانية بجريدة" الأخبار"، فقد استسلمتُ لحواديت منتقاة، عرفتْ كيف تجذبني مثلما لفتت انتباه غيري من قبل، وهو ما اختلف نسبيًا عند التدوين في كتاب، حيث انتابتني لحظات وعي مُتفرقة، كنتُ أحاول خلالها الهروب من المصيدة باستنتاجات شخصية، لأوهم نفسي أنني المتحكم الوحيد في خيوط الحكايات. لهذا أُقِرُّ بأنني لم أكن مُخيَّرًا في انتقاء هذه الحواديت دون غيرها، بل سيَّرني التاريخ في ذلك السياق، كي يحاول أن يؤكد أنه يعيد نفسه دائمًا، بينما نتعامل نحن معه في كل مرة وكأننا أمام وقائع جديدة.

الحواديت إذن لا تحتاج إلى مقدمات، لكن العبرة أيضا ليست بالخواتيم؛ لأننا ندور عادة في حلقات مُفْرَغَة، تجعل من الصعب تحديدَ نقطتي البداية والنهاية... إن التاريخ لا يكرر نفسه، بل يلهو بنا، ويعيد تدويرنا نحن في سياقاته دائمًا!!

تفسير مُختصر

لبعض المصطلحات الواردة بالكتاب:

أمير كبير: منصب استحدثه السلطان حسن في فترة حكمه الثانية، وكان الأول من نوعه في عصر المماليك، وأصبح ثاني أهم المناصب في الدولة، بدلا من منصب" نائب السلطنة" الذي تراجع شأنه. وقد ابتكر السلطان هذا اللقب ليكافئ الأمير شيخو، لأنه قاد انقلابا أعاده للحكم، وهناك من يطلق على هذا الأمير اسم شيخون، وذكره ابن إياس باسم شيخوا.

أتابك العسكر: هو أمير الجيوش، ويرى البعض أنه يعادل منصب وزير الدفاع حاليا، ويتعامل معه آخرون على أنه منصب قائد الجيش، ويرجحون أن ناظر الجيش كان المنصب الذي يشبه الوزير. وفي هذا الكتاب ورد ذكر عدد ممن تولوا منصب الأتابكي، ومنهم قوصون وصرغتماش وقرقماس.

استدار: المشرف على مخازن السلطان والنفقات، يشبهه عدد من المتخصصين بكبير الياوران في عصرنا. وكان المنصب في العصر المملوكي مرتبطا عادة بالفساد، لاقترانه بالأموال وبنود صرفها، لهذا تعرض كثيرون ممن شغلوه لعقوبات مُشددة في أوقات كثيرة. وممن ورد ذكرهم هنا الأمير فخر الدين عبد

الغني صاحب جامع البنات، والأمير زين الدين يحى مؤسس الجامع المعروف باسمه، في تقاطع شارعي بورسعيد والأزهر.

رأس نوبة النُوب: المسئول عن المماليك التابعين مباشرة للسلطان، وكان يتولى استعراض العسكر قبل خروج الحملات العسكرية.

أميرآخور: رئيس الإسطبل السلطاني.

الخزندار: المشرف على خزائن الملك.

أمير طبلخانة: كان حامل هذا اللقب مسئولا في البداية عن الفرقة الموسيقية السلطانية، لكن دلالة اللقب تغيرت بعد ذلك، وأصبح يشير إلى عدد من الأمراء ذوي النفوذ، الذين تدق الطبول على أبواب قصورهم. وكانوا عادة يشغلون وظائف في قصر السلطان، وتولّى بعضهم ولاية الأقاليم.

خوند: لقب يُطلق على زوجة السلطان، ومن بين من ذكرهن الكتاب، خوند سعادات زوجة المؤيد شيخ، التي تزوجها بعده أيضا السلطان ططر. وخوند بنت صُرُق زوجة فرج بن برقوق التي ذبحها بعد اكتشاف خيانتها له.

الأوجاق: وينطقها البعض وجاق، وهى كلمة تركية تعنى الموقد أو المدخنة، وصارت تُطلق على أى جماعة تتلاقى في مكان واحد، ثم أصبحت أكثر ارتباطا

بالجنود، وتعنى الوحدة أو الفرقة في الجيش العثماني، الذي كان يتكون من أربعة أوجاقات في عهد سليم الأول، وزادها سليمان القانوني إلى ٦.

أوجاق العزبان: إحدى وحدات الجيش العثماني، الغالبية العظمى من أفرادها غير متزوجين، لهذا أطلق عليهم اسم العزبان. وكان اختيارهم يتم من بين الشباب الأشداء، وقد شاركت هذه الوحدة في حراسة مقر الحكم بالقلعة، والقلاع بالأقاليم، وحماية الأراضي الزراعية من هجمات العربان.

أوجاق الإنكشارية: الفرقة الأساسية بالجيش العثماني، وكان يتم اختيار أفرادها من الشباب الذين تم أسرهم بالحروب، وتربيتهم بحيث لا يعرفون إلا السلطان أبا لهم.

المراجعُ

حسن عبد الوهاب- تاريخ المساجد الأثرية التي صلَّى فيها الجُمُعَة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول- الهيئة العامة لقصور الثقافة- ٢٠١٤م.

محمد بن إياس الحنفي- بدائع الزهور في وقائع الدهور- تحقيق: محمد مصطفى- طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة.

تقي الدين أبي العباس المقريزي- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار- طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة- ١٩٩٩.

محمود سيد عبد الله- مدافن حكام مصر الإسلامية بمدينة القاهرة- دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر-٢٠٠٤م.

د. فهمي عبد العليم- جامع المؤيد شيخ- مطبوعات هيئة الآثار المصرية- ١٩٩٤.

أمين سامي باشا- تقويم النيل- دار الكتب والوثائق المصرية- ٢٠٠٢م.

عبد الرحمن عبد التواب- قايتباي المحمودي- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٧٨م.

جمال الغيطاني- قاهريات مملوكية- دار المعارف- ١٩٩٥.

أبو محمد عبد الله بن محمد البَلَوِي- سيرة أحمد بن طولون- تحقيق: محمد كُرْد علي-الهيئة العامة لقصور الثقافة.

بيتر مانسفيلد- تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط- ترجمة: عبد الحميد فهمي الجمال- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٩٥م.

د. حسن الباشا- موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية- مكتبة الدار العربية للكتاب- ١٩٩٩م.

أندريه ريمون- فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية- ترجمة: زهير الشايب- مكتبة مدبولي- ١٩٧٤.